مكتبة العقائد
(٤)

الرّد على أعداء الإسلام

تأليف
محمد عبد المنعم خفاجة

الناشر
دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع
عمارة رمسيس - ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة
١٩٦١

تصدير

الإسلام .. ديننا الخالد الكريم ، رصيد ضخم من القيم الإنسانية ، ومن الدفاع عن حقوق الإنسان وحريته

لحق الإنسان فى الحياة حق طبيعى ، وهو من أبسط مبادىء العدالة . ولكن بعض الأمم القديمة حرمت من هذا الحق بعض الناس . وقد جاء القرآن ينهى عن القتل وسفك الدماء : وشرع شريعة القصاص ، «ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون »،« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص » . وقال صلى الله عليه وسلم من خطبة حجة الوداع :«أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

وحق الإنسان فى الحرية ، كفله الإسلام وأيده ودعا إليه :

رعى الإسلام الحرية السياسية فجعل لكل فرد عاقل رشيد الحق فى أن يشترك فى إدارة شئون الدولة ، حتى قال عمر من خطبه له : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعونى ، وإن زغت فقومونى » . وقال عثمان : « إنى أتوب وأنزع ولا أعود لشىء عابه المسلمون ، فإذا نزلت من منبرى فليأتنى أشرافكم ، فليرونى رأيهم . فوالله لئن ردنى الحق عبداً لأذلن ذلة العبيد » .

ورعى الإسلام حرية الفكر والرأى . وفى القرآن الكريم نعى شديد على المقلدين والجامدين ، ودعوة إلى تحرير العقل من شتى القيود .. حتى حرية العقيدة والدين نص عليها القرآن الكريم : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .. وعهد رسول الله للنصارى فى جزيرة العرب ،

خير ميثاق يؤكد ذلك .. وكتب عمر إلى أهل بيت المقدس عقب فتحه له أماناً تعهد فيه بالمحافظة على حرياتهم وأموالهم ودمائهم وكرامتهم وحرياتهم الدينية ، وذكر أن النصارى أكثر أهل الأديان قرباً ومودة للمسلمين : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » .

ورعى الإسلام الحرية الشخصية ، ونهى عن الاعتداء عليها . بل أوجب على الحاكم الرفق بالمسلمين ، وفى ذلك يقول الرسول الأكرم : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق عليه » . وكان هدف الإسلام من تعاليمه فى ذلك رفع القوة المعنوية للمسلمين ، والمحافظة على كرامتهم وإشعارهم بالعزة والسيادة والقوة والحياة .

وحق الإنسان فى الأمن ، أشد التزاماً فى الإسلام ،فقد حارب الإسلام الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ، وأوجب القصاص والحدود وألزم المؤمن بأن يعامل أخاه برفق وفرض عليه أن يحب لأخيه مايحب لنفسه . وجعل الحاكم مسئولا عن الأمن والنظام .

ديننا الإسلام بكل قيمه ومثالياته هو خير رصيد لنا فى حياتنا التى نحياها وسط أمواج عاتية من صراعنا مع الاستعمار والإلحاد .

وفى هذه الفصول نعرض الإسلام عرضاً جديداً،ونوازن بين مثالياته وبين الأفكار الخاطئة التى دعا إليها ماركس وتلاميذه ، والتى حاولوا بها القضاء على فطرة الدين التى فطر الله الناس عليها

وأعتقد أن فى هذه الأصول مايغنى الباحث والقارىء ويدلها على عظمة الإسلام وخلوده ، وعظمة ما أتى به من مبادىء وأصول ؟

خصوم الدين

١

رسالة الدين فى الحياة هى السمو بالعواطف والمشاعر ، وتهذيب الأخلاق والضمائر ، وتطهير النفوس والعقائد ، ورعاية كرامة الإنسان خليفة الله فى أرضه، والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات والشعوب .. هى النهوض بالإنسانية ، والسير بها قدماً نحو النور والهدى ، والطهر والخير ، والعزة والحرية ، والأمان والسلام .

الدين هو شريعة الإصلاح ينظمها قانون سماوى له فى النفوس الحب والتقديس ، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد والبناء والنهضة والحضارة ، والنبع الأزلى للحقيقة والإيمان والعدالة .

فليس هو مخدراً للشعوب ، كما زعم كارل ماركس وأنصاره من دعاة المادية والإلحاد ومحاربة الدين باسم المدنية ، ومن الذين يغالون فى إنكار الروحيات ووجود الله ومعاداة كل ما يمت بصلة إلى الدين ، ويزعمون أنه يجافى العقل والعلم والتقدم .

إن الأديان السماوية عامة ، والإسلام من بينها خاصة ، لا تعترف بأية وصاية أو حجر على العقل ، ولا تقر ظلماً أو عدواناً ، ولا تلبس الأهواء والشهوات مسوح الدين ، ولا تشرع ما ينافى ناموس الارتقاء .

٢

ولقد جاء الإسلام ، فأيقظ الشعوب ، وعزز فكرة الإصلاح ، وحمى الحرمات والحريات وكرامة الإنسان . لم يترك حقاً إلا شرعه ، ولا عدلا إلا فرضه ، ولا فضيلة إلا أوجبها ، ولا خيراً إلا دعا إليه . وحارب الاستغلال فى شتى صوره ، واعترف بشخصية الإنسان المعنوية ومكانته الأدبية فى الحياة ، فجعل له حقوقاً كفلها ورعاها ، وحذر من يعتدى عليها من سخط الله وغضبه وعذابه الأليم ... لم يقاوم الإسلام رغبة جماعة فى الإصلاح ، بل أنكرته الجماعات المتأخرة لما تدعو إليه مبادئه من تجديد وتنظيم وإصلاح .. وهذه المبادىء المثلى هى التى كانت تدعو بنفسها إلى الإسلام فى شتى الأقطار والأمصار ، وهى التى مهدت لقيام حضارة زاهية مشرقة ، كانت نواة الحضارة الحديثة . . ولا عجب فللإسلام مآثره الرائعة فى تحرير الشعوب ، والذياد عن الحقوق، وتنظيم الواجبات ، وفرض العدالة والمساواة والإخاء ، وحماية الفكر ورعاية الثقافة .

ولا ريب أن فى اتباع مبادىء الدين ، والسير على منهاجه ، والإيمان بما يدعو إليه من مثل ، عصمة من الزلل ، ومنجاة من العثار . فالمبادىء القوية لا تخلق الجماعات القوية ، إلا إذا آمنت بها ، واتبعتها ، واتخذت منها ناموساً كريماً ، ونظاماً قويماً ، يقيها عواصف الأهواء ، وزيغ الشهوات والعدوان .

وإذا كان هناك من يتجر بالدين فى عصور التأخر الفكرى

والاجتماعي ، فليس ذلك ذنب الدين نفسه ، إنما هو ذنب من يريد أن يحيل النور ناراً ، والهدى ظلاماً ، ويعلم الحق ويكتمه ، ويحامل فيه ، ويحاول أن يطفىء نور الله ؛ ولقد حذر الله تعالى من هؤلاء ، وأنذرهم بعذاب شديد .

وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من إنكار كثير من الفلاسفة والمفكرين لآرائهم المادية الإلحادية ، وجهرهم بأن الدين شيء مقدس لا تستغني عنه الإنسانية ولا الحياة . فكرة الله الذى ليس له نهاية ، وعقيدة الدين ، وقدسية الروح ، وتنظيم العلاقة بين الله وعباده ؛ كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ؛ وإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش على الأرض إذا فقد الإيمان بالدين ، والعقيدة فى وجود الله .. ومن آمن بالمادية فقد كفر بالخالق الأعظم ، وأسلم نفسه للحيرة والضلال ، « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وإليه يرجعون ؟ » . .

٣

إن الإسلام لا يزال كما كان حارس المدنية الأمين ، والمنقذ الأكبر للناس من الفوضى والانحلال ، والداعي للنهضة والتقدم والرقي،والباعث على الخير والبر والإحسان والرحمة ، والمقوم لأفكار المسلمين من الزيغ والضلال والهوى والشر ، والحائل بينهم وبين المبادىء الهدامة ، والأفكار الباطلة .

هو الساعد القوى للحكومات على نشر الأمن والسلام والحب والتعاون فى قلوب المسلمين كافة،فهو الذى يثقف العقول ويهذب النفوس ويحيي الضمائر ويرهف الإحساس ويحفز إلى الخير ويقيم من المجتمع الإسلامى وحدة تامة يسودها الأخاء والمساواة والحب والتعاون .

الإسلام حقائق واضحة ، وروح سمح ، وتجديد مستمر فى بناء النهضة ، ودفاع عن العدالة والحق والسلام . وهو ليس طغياناً وعدواناً وإزهاقاً للأرواح وسلباً للأموال وحباً للجريمة ورغبة فى الإفساد .

وإذا كانت العامة لم تفهم الدين على حقيقته فى الزمن الماضى ، فما أجدرهم بالوقوف على حقائقه وفهمه حق الفهم فى عصرنا الراهن بعدأن يسرت أسباب الثقافة الإسلامية وفهمها . ولقد كان انحراف العامة من المسلمين عن الدين سبباً فى هذه التهمة الباطلة التى رددها المتعصبون من الماديين مثل الماركسيين ، وهى أن الإسلام يقف فى طريق النهضة والحضارة لأنه دين الجمود والخمول .

ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا ، قل لى بربك متى وقف الإسلام فى طريق النهضة وهو الذى نشر الحضارة والثقافة فى

العالم ، ورعى العلوم والآداب فى عصور الظلام والفوضى ، ومهد لعصر الإحياء ، وساعد على حفظ وتجديد تراث الإنسانية الروحى والأدبى . وقل لى بربك متى كان الإسلام دين الجمود وهو الذى دعا إلى أروع المبادىء الروحية والاجتماعية والسياسية والإنسانية منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ونشر مبادىء الحق والعدالة والإخاء والمساواة والديمقراطية الصحيحة قبل الثورة الفرنسية بأجيال مديدة .

لا يزال الإسلام كما كان وكما يصوره أبو سفيان بن حرب عدوه اللدود حين سأله هرقل عن دعوة محمد فقال : « يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم ». ولم يكن رسوله الأكبر زعيماً دينياً متعصباً ، بل كان ملكا رحيما بالناس والحياة فأنقذ البشرية ودعا إلى تحررها وتجديدها ، وكان كما يقول حتى خصومه فى وصفه : « يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق » .

ومع ذلك كله فلابد من أن نفهم ديننا فهماً صحيحاً وأن يكون سلوكنا فى الحياة وفق نواميسه حتى لا يرمى الإسلام بسببنا بتهم باطلة .

ما أجدرنا أن نؤمن بالدين إيماناً صحيحاً ، وأن نفىء إلى الله وإلى الحق والإسلام .

الدين ضرورة إنسانية

يقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

وفى معجم لاروس للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية ».

وفى هذا رد على الشيوعيين والملحدين وأشباههم ، والعجيب فى فلسفة « أوجست كونت »أن تذهب مذهباً مادياً حين قررت أن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة : دور الفلسفة الدينية ، ثم دور الفلسفة التجريدية ، ثم دور الفلسفة الواقعية ، وتجعل هذا الدور الثالث آخر الأطوار وأسماها .

وخير رد علمى على « أوجست كونت » وأشباهه هو ما يقوله الدكتور ماكس نوردوه : « هذا الشعور الدينى أصيل يجده الإنسان غير المتمدين ، كما يجده أعلى الناس تفكيراً . وأعظمهم حدساً . . وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية ، وستتطور بتطورها » ، وما يقوله أرنست رينان فى تاريخ الأديان : « إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » .

ويقول محمد فريد وجدى فى مادة « دين » فى دائرة معارفه : « يستحيل

أن تتلاشى فكرة التدين ، لأنها أرق ميول النفس ، وأكرم عواطفها ، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان ، بل إن هذا « الميل » سيزداد ، ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح ، وستزداد هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه » .

إن عصر الفضاء الكونى الذى بدأت الإنسانية تدخل فيه ، سيعزز فكرة الإيمان والتدين فى النفس البشرية بما تجلى فيه للإنسان من عظمة الكون وجلاله وسعة كواكبه وأقماره وشموسه .

وإذا كان بعض الباحثين قد وقفوا أمام نشأة العقيدة الدينية يعللونها بأن الدين بدأ فى صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى فى دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتدريج ، كما تدرج نحو الكمال فى علومه وصناعاته ، حتى زعم بعضهم أن عقيدة الإله الأحد عقيدة جد حديثة ، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى ، فإن هناك فريقاً كبيراً من علماء تاريخ الأديان يقررون أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر ، والوثنيات إن هى إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة ، وهذه هى نظرية فطرية التوحيد وأصالته التى انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ، ومن أشهر مشاهيرهم « لانج »الذى أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية فى استراليا وإفريقيا وأمريكا ، ومنهم شريدر الذى أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، وبروكلمان الذى وجدها عند الساميين قبل الإسلام ، وشميدث عند الأقزام وقبائل من استراليا ، وقد انتهى بحث شميدت إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية .. وهذا مصداق

قوله تعالى فى القرآن الكريم : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما إختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » [١]

---

(١) آية ٢١٣ سورة البقرة .

الحرب على الدين منطق الماركسيين

١

يتبنى الماركسيون منطق الإلحاد والثورة على الأديان عامة ، وهم فى ثورتهم هذه كالإعصار الهائج الذى يدمر كل شىء يأتى عليه ، ومن الأسف العميق أن فكرة الإلحاد تشغل كل شىء فى فلسفة المادية ، وهى نقطة انطلاق فى الأيديولوجية الماركسية ، عنها تتفرع سائر الاتجاهات المادية.

إن ثورة الماديين تريد أن تحطم كل قيد يقيد حريتها فى السيطرة على الإنسان ، وليس أمامها من مارد جبار يعوق قدرتها على العمل والانطلاق سوى الدين ، لذلك صبت المادية غضبها عليه .

ويستمد ماركس وتلاميذه نظريتهم فى فكرة الله ونشأتها فى قلب الإنسان وعقله من فوربخ ونظريته التى بسطها فى كتابيه : « جوهر المسيحية » ، و « مبادىء الفلسفة » ، وخلاصة مزاعم فوربخ أن الله ثمرة وهم جماعى . ومن ثم تنادى الماركسية بأن على الإنسان أن يتحرر من هذا الوهم .

وقد وصف إنجلز تأثير فلسفة فوربخ فى نفسه ونفوس أترابه فقال عام ١٨٤١ م :

« لقد تسربت الحماسة إلينا كلنا وانضوينا تحت لواء فوربخ » ، ورأى

أن فلسفة فوريخ وضعت حداً لمناقشات دامت آلاف السنين وهى غير ذات موضوع ، وأنها حد نهائى للأوهام المنبثقة عن الإيمان بالله . وانتشرت هذه الأفكار فى روسيا وألمانيا ، وتغلغلت فى قلوب الملحدين تغلغلا كبيراً ، ودعا إليها فى روسيا بلينسكى ، كما اعتنقها ودعا إليها ماركس .

دعا ماركس إلى الإلحاد ، وقال : إننى كإنسان أملك جسداً متعدد الحاجات ؛ ومن إشباع رغبات هذا الجسد وحاجاته ينشأ التطور التاريخى للثقافة والتمدن ، فالعامل الاقتصادى هو الذى يدير دفة الحياة ويرسم لنا الخطوط الكبيرة ، وعلى من يريد أن يحرر نفسه أن يبدأ أولا بتحرير حياته ، الاجتماعية والاقتصادية . وقال لينين : « إن المادة هى الوجود الأول » واعتنق ماركس نظرية دارون فى تطور العالم العضوى ، ولا يمل الماركسيون من المناداة بأن أول مهمة يضطلعون بها هى خلق جبهة نضال مدربة تشن عندما يحين الأوان حرباً ضارية على الفئات الرجعية فى العالم ، فتحطمها وتقبض على أزمة الحكم بأيد ظاهرة » . وبذلك أضاف ماركس عنصراً جديداً إلى فلسفته هو النزاع الطبقى .

ومن ذلك نعرف أن عناصر ثلاثة استبدت بفلسفة ماركس الإلحادية :

الأول : المادية الجدلية التاريخية .

الثانى : الصراع الطبقى .

الثالث : الحرب على الدين وعلى فكرة الله...والماركسية تطبق نظرية فوريخ على المجال الاجتماعى والاقتصادى ، وهى تنادى قائلة : يجب أن تحول المجتمع ، يجب أن نمحو الله من ضمير الكون لأن الإيمان بالله — فى مزعمهم الفاسد — بتر لشخصية الإنسان . وبئس ما زعمت الماركسية والماركسيون .

٢

والإلحاد فى فلسفة ماركس وأتباعه مرجعه إلى عاملين :

الأول اجتماعى اقتصادى ، يفسره الماديون فيقولون « إن الشعور الدينى يعبر عن الشقاء الواقعى من جانب ويحتج على البؤس الواقعى إحتجاجاً صارخاً من جانب آخر ، فالديانة هى قلب عالم انتزع منه قلبه ، إنها أفيون الشعب » . وهى فى جملة رأيهم ناشئة عن الاحتكار الاقتصادى ، لإلهاء الإنسان وإخضاعه لفلسفة الرجعية وسيطرتها .

أما العامل الثانى فى سبب الإلحاد عند الماركسيين فهو فى مزاعمهم الباطلة مشكلة الحرية ، فماركس يزعم أن الحرية لا تعيش فى بيئة الدين ، ولا توجد مع الإيمان بوجود الله ، يقول ماركس : « إن ديانة العمال ترتكز على نفى الله ، وتحاول أن تجدد ألوهية الإنسان » .

ويرى الماركسيون أن الديانة أداة استعباد للشعوب ، يقول لينين : « الديانة هى أفيون للشعب ، هى صنف سيء من المخدر الروحى » ، ويقولون : إن فكرة الله أنامت الشعور الاجتماعى » .

وهذه الآراء كلها قد فندناها تفنيداً كاملا فى كتابنا « الرد على الماديين » ، وشرحنا خطرها وتناقضها ، وضرورة الإيمان بالدين وبالله ، لأن الدين والإيمان بالله ضرورة إنسانية قبل كل شيء ، وإن المؤمنين لهم فى طليعة القافلة الإنسانية ، والديانة تعنى بالواقع المادى ، وإن فى الكون والحياة والكائنات آثار الله واضحة للعيان :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواجد

وقد كتبتها بالجيم لا بالحاء ـ أى الخالق ، بدل « الواحد » .

٣

عندما ذاعت فى آخر القرن التاسع عشر نظرية التطور ، امتدت هذه النظرية من الكائنات إلى الديانة ذاتها ، فحاول بعض الأوربيين العثور على الديانة البدائية التى انبعثت عنها ديانة الإله الواحد التى تعد أكمل صيغة للديانات .

ويحاول تيلور أن يفسر الديانة بنظريته الروحية المناقضة للنظرية الطبيعية لماكس مولير ، ولفردريك نيتشه نظرية أخرى ، زعم فيها أن جنون الإنسان وتعطشه إلى السعادة هما العاملان اللذان أوجدا الدين ، يقول فى كتابه « هكذا تكلم زرادشت » إن هذا الإله الذى خلقته هو إله صنعته يد الإنسان وجنونه ، كما هى عليه جميع الآلهة » .

ويرى برغسون فى كتابه « ينبوعا الأخلاق والدين » ، وفى كتابه الآخر « التطور المبدع » أن غريزة الإنسان لا خياله وأوهامه هى أساس الديانة ، فالديانة عنده مسيرة بنوع من الغريزة لحفظ كيان المجتمع . ويرى رينان أن الغريزة المضمرة غير كافية لتفسير نشأة الديانة ، ورأى أن مرجعها إلى الغريزة الظاهرة الحقيقية ، فالديانة عنده من الأمور الطبيعية فى الإنسان ، تدفعه إليها الغريزة ، كما تدفع العصفور إلى عمل العش دون سابق معرفة .

ويرى البعض أن الطوتمية أقدم ديانة عرفت فى تاريخ البشر ، وهى نظام دينى اجتماعى مما يعرف بمذهب الطوتم ، ويرى علماء العمران أن سكان أوستراليا الأصليين أكثر الناس تأخراً فى مضمار الحضارة ،

وأنهم فى حالة من التوحش والبؤس لا تضاهيها حالة ، ودياناتهم بعيدة جداً عن المظهر الذى تأخذه الصابئة فى عبادة النجوم والتقرب إلى الكائنات ، وهى ما تعرف بمذهب الطوتم .

ويرى سبنسر أن الأقدمين أطلقوا على أنفسهم أسماء بعض الحيوانات تشبيهاً وتحبباً ، وورث الأبناء هذا اللقب من آبائهم وبمرور الأجيال صار هذا الحيوان موضع إجلال أفراد القبيلة وتقديسهم وعبادتهم،وصار هذا الحيوان « طوتما » للقبيلة ، وصارت الطوتمية عبادة. وكذلك ذهب جون لوبوك ويفسر فرويد الطوتمية تفسيراً غريزياً منبثقاً من أبحاثه فى الغريزة الجنسية وتأثيرها فى حالة الولد النفسية .

ويرى إميل دوركهيم أن الإنسان لا يعبد الطوتم وإنما يعبد القوة الكامنة فيه . ويعزو نشأة الديانة إلى الحياة الاجتماعية فالأفراد بتآلفهم يعيشون حياة كلها حماسة ينبعث منها شكل تيار كهربائى يتوهمون أنه صنع الإله ، وهو فى هذا الزعم ضال مضل .

وترى لوروا أن الأسرة أقدم المجتمعات الإنسانية ، بل هى أساس كل مجتمع ، وينتقد النظرية التطورية فينكر أن يكون قد ابتدأ حياته على مثال الحيوانات الكبرى ، والطوتمية لم توجد الوجدان الدينى الخلقى ولا الاعتقاد بالأرواح ، ولا تقديم الذبائح ، بل إن هذه الأمور كلها موجودة من قبل .

ومن غير شك أنه توجد عاطفة دينية ، وإن كان وليم جيمس يذهب إلى أنه لا توجد عاطفة دينية لها طابعها الخاص بالمعنى السيكولوجى التام ، وليست التربية الدينية وحدها هى التى تحمل الطفل على القول

بوجود إله يعلو الخلائق بحكمته ، بل هى العواطف الداخلية .

إن الكتب السماوية تفسر الدين تفسيراً واضحاً معقولا خلاصته أن الله عز وجل أخذ بيد الإنسان منذ القدم على فهم الحياة وعبادة الله فأرسل إليه رسلا بكتب سماوية لهدايته وإرشاده وتهذيبه ، ونقلته هذه الرسالات من طور إلى طور ، حتى وصل إلى منزلة راقية جعلته أهلا لأن تنزل عليه خاتمة الرسالات ، وهى رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه . وما عبادة السحر والحيوانات والنجوم إلا نبت طفيلى على جذر ديانة التوحيد التى أفضى بها للبشر وحى إلهى كما يقول الأب « شميت ». ففكرة التوحيد متقادمة العهد ، ترقى إلى أول عهود الإنسانية وقد عرفتها الشعوب البدائية . فنظرية «فوربخ» القائلة بأن الله هو تجسيم لعظمة الإنسان نظرية خاطئة تعارض حقائق الواقع والتاريخ والمنطق البدائى الذى يفرض أن لكل شىء سبباً ، ولكل سبب علة . ولو صح أخيراً أن فكرة الله هى وليدة عقل الإنسان الذى ذهل لعظمته ، ولم يعرف لها مصدراً فجسدها فى شخص أسماه الله ، فإن العلم والمنطق يثبت أن وجود الله — وإن كانت طريقة إدراكه فى ماضى الزمن خاطئة — حقيقة راهنة اعترف بها أكبر فلاسفة الفكر الإنسانى .

إن الدين مستقر فى أعماق النفس الإنسانية ،وهو قوام حياة البشر العقلية والفلسفية والخلقية والفنية والاجتماعية .

٤

يقول الماركسيون إن التوحيد نتاج الحياة الاقتصادية ، وهذا وهم كاذب ، فالدين ليس لفرض سيطرة طبقية أو اقتصادية ، وليس وسيلة إكراه وعبودية ، إنما هو داعية للتحرر والرقى وكرامة الإنسان .

إن الشيوعية ترى أن تعيش فى نضالها العنيف مع الدين ، ولا تحب أن تتخلى عن فكرتها الخاطئة هذه ،وستهزم الشيوعية المادية أمام الدين، وستهوى بأتباعها إلى نار جهنم خالدين فيها أبدا .

ولا يظن ظان أن المادية قد تخلت عن فكرة حرب الدين، فلاتجالس مع شيوعى إلا ويحدثك عن رجعية العقلية الدينية ، وأن عصر الدين قد انتهى وأن القرآن والإنجيل والتوراة كتب رجعية انتهى عصر سيادتها الفكرية والروحية . وكان لينين يقول : « إن فكرة الله تهيمن على الإنسان فيضؤل بها نشاطه ، وتغل الشعور الاجتماعى،هى أبداً فكرة عبودية من أشنع أصناف العبودية » . ويعلن لينين موقفه من الدين بصراحة فيقول : « يجب أن نحارب الديانة » . ويقول ستالين : «لا يمكن للحزب أن يلبث فى حالة من اللامبالاة تجاه الدين ، لأن الحزب قد جرد كل قواه لخدمة العلم ، بينما الأوهام الدينية تقوم حاجزاً فى طريق العلم » وفى كتاب « الدين والإلحاد » الذى نشرته الأكاديمية العلمية عام ١٩٥٠ فى موسكو نصوص كثيرة تطلعك على الحرب المستعرة التى يشنها الشيوعيون على الدين ، يقول مؤلف الكتاب : « الدين هو دوماً أفيون الشعب ، ومولد الجمود ، وإرث خرافات إنسانية منحطة» . ويعلن سكرتير الحزب

الشيوعى الفرنسى عام ١٩٤٩ أن حزبه مادى ملحد . وقالت جريدة الفاتيكان الرسمية فى عدد ٢٨ يوليو ١٩٤٩ : « إن الشيوعية اليوم هى مادية معادية للمسيحية ». وفى ١٩ مارس ١٩٣٦ أذاع البابا بيوس الحادى عشر رسالة قال فيها « إن الشيوعية عقيدة دكتاتورية وجور وسحق لشخصية الإنسان وخنق للأفكار الدينية » وكذلك كرر البابا بيوس الثانى عشر الإعلان فى ٢٠ أيلول ١٩٤٩ بمادية الشيوعية وإلحادها وجورها على الدين .

إن الأخلاق فى عرف الشيوعيين لا تنبع من الضمير الدينى ، بل هى عندهم وليدة الإنتاج ؛ والآداب النفسية فى رأيهم فى تبدل مستمر ، وعندهم أن الأخلاق هى تحقيق أهداف الحزب ، فليست هناك قيم أخلاقية ثابتة كما يقول إنجلز .

وتنادى الشيوعية الإلحادية بإلغاء الطبقات وبأن مطالب الإنسان مصدر أخلاقى ، والغاية عندهم تبرر الوسيلة .

إن الأخلاق الإنسانية لا يمكن أن تزدهر فى ظلال مجتمع شيوعى ملحد ينكر وجود الله ، وإذا أنكرنا وجود الله فقد أطلقنا للأهواء والشهوات والشياطين العنان . إن عدو الله هو عدو للإنسان أيضاً ، ومن ثم فلا يمكن لى أن أثق فى شخص شيوعى ملحد ، الغاية عنده تبرر الوسيلة .

إن حرية الإنسان والعمل فى ظلال النظام الشيوعى لا وجود لها ، فبعد الثورة الشيوعية فى روسيا بكثير من السنين نجد الإنسان مستعبداً مسخراً ضعيف الشخصية يسير كالآلة ، ويجبر على حضور الاجتماعات والاستعراضات وعلى التصويت الإجبارى للائحة واحدة ، وقد كفرت الشيوعية بالله ، وأحلت محله العبودية الكاملة للزعيم الحاكم المسيطر على كل شىء . ويقول راديو الفاتيكان فى إذاعة له فى ٢١ مارس ١٩٤١ : « لا يعتبر الإنسان فى المجتمع الشيوعى كخليقة عاقلة بل كآلة » .

العمل عقيدة الماركسيين

وتحيل الماركسية العمل إلى عقيدة تؤمن بها ، فهو عند الشيوعيين طليعة نشاطات الإنسان ، ومعناه تأمين سيطرة الإنسان على الطبيعة ؛ والعمل يحقق الوحدة بين الإنسان والطبيعة ، وهو عندهم وسيلة تحرير !

ومن العجيب أن عقيدة الشيوعية فى العمل جعلت حياة الإنسان فى المصنع حياة سخرة ومذلة وهوان إلى أبعد الحدود ، فالطاعة السلبية بحجة الرغبة فى كسب المال ، والتفاؤل الكاذب ، والتهالك على الإنتاج ، كلها قتل لكرامة الإنسان ، فالسعادة ليست ثمرة الإنتاج ، على أن حالة العامل الشيوعى المادية والأخلاقية هى أسوأ من حالة أى عامل من عمال العالم المتأخر فى اقتصادياته، وقد أفلست الشيوعية فى علاج سوء حالة العامل، ولم تفلح فى تحسين حالة العمال ولا أنظمة العمل . .

وإذا كانت الشيوعية قد كفرت بعقيدة الدين فقد آمنت بعقيدة العمل ، هذه العقيدة الكاذبة ككذب أختها عقيدة المادية الإلحادية .

والشيوعية تجعل كل شىء فى خدمة الحزب الحاكم ، فالاقتصاد والمصنع والمدرسة ، وغيرها مجندة فى خدمة المبادىء التى تؤمن بها الدولة ؛ وتجعل الدولة نفسها مجندة لخدمة مبادىء الحزب التى تتلخص فى الرغبة فى سيطرة المادية الجدلية الإلحادية على العالم كله .

والشيوعية تعلن الحرب على الممتلكات ، ولا ترضى بمبدأ الملكية الخاصة نظرياً أو تدعو لأن يكون كل شىء مشاعاً للجميع ، ولأن تنتقل ملكية الأفراد إلى الدولة . حتى العامل يصبح فى ظلال الشيوعية ملكا للدولة .

والغريب أن الأديان فى إباحتها للملكية ضمن نطاق مصالح الدولة تعترف بأن الملكية حق طبيعى، وأنها ضمان للمستقبل، ودعامة للأسرة، وعامل سلام للجماعة ؛ وإلغاء الملكية ما هو إلا نير واستعباد .

إن الدولة فى ظلال المجتمع الشيوعى ديكتاتور غاشم ؛ والمجتمع المادى مجتمع بطىء التقدم ، وهو مجتمع معزول محروم من كل عدل ، مهدد بالخوف والفزع والبطش ، وهو يعيش كما يعيش المنوَّم المفزوع .

إن الشيوعية تمتهن القيم الإنسانية ، والإنسان ضئيل الشأن فى ظلها.

فلسفة الإسلام العملية

الإسلام دين الفطرة ، فهو دين طبيعي ينفذ إلى النفوس الفطرية من غير مشقة ولا إجهاد فكر ، وذلك لأنه دين يدعو أصحاب العقول إلى إعمال فكرتهم فى حقائقه ، ويتسع إلى المناقشات العقلية والمنطقية ، لا يتوارى عنها ، ولا يستتر دونها بستار شكلى ؛ ويؤمن به المسلم إيماناً راسخاً كأنه ضرورة من ضرورات حياته ، ووسيلة متفردة فى إسعاده . وقد يساعد على ذلك عوامل كثيرة ، منها ما يرجع إلى التربية والتعليم تحت تأثير البيئة ولون الحياة التى يحياها المسلم العادى ، ومنها ما يرجع إلى الاستعدادات الموروثة والدوافع الشخصية الداخلية ، ومنها ما أشرت إليه فى اختصار من أن الإسلام دين يعتقد . لا دين يملى إملاء . وسأفرد فيما يلى لكل حالة من الحالات التى ذكرتها كلمة يسيرة ، تزيد فى إيضاح ذلك ، وتكشف عن حقيقته :

١ ــ الدين الإسلامى دين ذو قواعد سهلة واضحة لا تعقيد فيها ولا التواء . فالعبادات الدينية فيه عبادات يقوم بها المسلم لربه فى أى مكان ، يسر فى ذلك أو يعلن . والله سبحانه وتعالى طالب العبد فى عبادته أن يقف بين يديه من غير واسطة ، وجعل مقام ذلك العبد إن كان تقياً فى عبادته مخلصاً لله فيها أكرم مقام وأعز موضع ، فقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » لا فرق فى ذلك بين أعجمى أو عربى ، شرقى أو غربى ، فكرم المرء عند الله بعمله يقرب منه سبحانه به ؛ وبعده عن الله بعمله إن كان شراً ، يخرج به عن رضاه ، ويستحق بشروره غضب الله فى الدنيا ، وعقابه بالنار فى الآخرة .

لكل ذلك ترى المسلم حريصاً أن يكون قريباً من ربه كريم الموضع عنده ، وما أخف الوسيلة إلى ذلك وأهونها على النفس . فقد يسر الله على عباده هذه التكاليف ، وما حملهم شيئاً فوق طاقتهم ولا أرمقهم ، بل راعى سبحانه وتعالى الرأفة بعباده ، فكان رفيقاً بهم فى تكاليفه ، مترخصاً لهم فى حالاتهم التى تعرض من شدة أو عناء ، فقال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، حتى لقد دعا سبحانه وتعالى كثيراً ممن أسرفوا على أنفسهم أن يعودوا إلى رضاه ، وهو غافر لهم الحوبة ، قابل منهم التوبة ، فقال عز من قائل « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » ، وقال تعالى « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

٢ — وإن المتتبع لطبائع العرب والباحث فى دوافعهم النفسية واستعداداتهم الموروثة من أجيال طويلة مضت ، يقرر أن لها أكبر الأثر فى الإقبال على العبادات ، والقرب من الله ، والإخلاص فى دعائه سبحانه وتعالى ، وخصوصاً حينما تحل بهم الشدائد ، أو تحزبهم الكروب ، فما أسرعهم حين يتوجهون إلى الله سبحانه وتعالى ضارعين إليه أن يفك أسرهم ، ويفرج كربهم ، يخضعون فى ذلك لقوله تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » . وقوله تعالى « هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له ، الحمد لله رب العالمين » .

٣— أما التعليم والتربية فإنى أعتقد اعتقاداً قوياً فى أثرهما فى ذلك الإخلاص القوى ، والتفانى فى الطاعة لله سبحانه وتعالى ، وذلك لأن التعليم الدينى فى الدول العربية كان هو السائدفى القرى والمدن.فقدانقضت حقبة طويلة والتعليم فى المكاتب والمدارس أساسه حفظ القرآن وترتيله ، وما كان يتعلم بجانبه من الكتابة والقراءة لم يكن إلا وسيلة لقراءة كتاب الله واستظهاره ، وحين تدرج التعليم فى الدول العربية حتى اشتمل التعليم المدنى فى مراحله الابتدائية والثانوية والعالية ، كان غذاء هذه المدارس الجديدة المتخرجين فى المكاتب التى قلت إن التعليم فيها يقوم على أساس قراءة كتاب الله وحفظ ما يمكن حفظه منه ، وما تجردت برامج الدراسة فى المدارس الابتدائية والثانوية من دراسات كافية للمبادىء الدينية فى كل فرقها ، فإنها تحرص دائماً على تحفيظ بعض آى القرآن زيادة على دراسة المبادىء الدينية الكثيرة . على أن التدرج فى إنشاء هذه المدارس المدنية لم يحرم البلاد العربية من المحافظة على أكبر معهد دينى له الأثر الكبير المشكور فى شرح قواعد الدين وبيان عقائده ، ذلك هو الأزهر الشريف ، الذى له الفضل الأكبر فى الاحتفاظ بالآثار الصالحة المتوارثة عن السلف من كبار المسلمين ورجال العلم منهم ، فقد بقى أكثر من ألف عام وهو الينبوع الفياض الذى تنفجر منه عيون الحكمة الإسلامية ، وتفيض من جوانبه جداول المعرفة فى كل ناحية من نواحى العلم والدين والثقافة الإسلامية . ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إنه هو المعهد الوحيد الذى حفظ للمسلمين تراثهم ، وأبان لهم سبيلهم ،وأوضح أمامهم معالم الحق ، وجنبهم مسالك الضلال ، وأنه إلى عهد قريب جداً كان المعهد الوحيد الذىأخرج للعالم الإسلامى من قامت

بأفكارهم نهضاتها ومن استحدثت بهم الدول العربية أسس حضارتها التى يجنون ثمارها الآن.

ومن كل ذلك يتبين لك من غير خفاء أن التعليم الدينى كان ولا يزال سلطانه غير محدود على النفوس العربية ، يدعوهم الأزهر إلى الاحتفاظ بدينهم ، والإخلاص لربهم ، من أول إنشائه إلى وقته الحاضر ، ولم يكن بعد ذلك موضع للعجب من تفانى العرب فى حبهم لربهم وإخلاصهم لدينهم ، وسيبقى ذلك إن شاء الله مابقى الأزهر ، وما بقيت النفوس خالية من الهوى والغرض .

ولهذا فإن الشيوعية لا تتغلغل بين صفوف المسلمين ، لأن الدين الإسلامى يكفل للمسلمين التساند الاجتماعى ، ولأن واجباً محتوماً على كل واحد منهم أن يأخذ بيد أخيه المسلم ، وأن يقف حاجزاً بينه وبين الحاجة وما تستدعيه ضرورات الحياة ... ومن ثم فلا جدال فى أن الإسلام هو الصخرة التى ترتطم بها أمواج الشيوعية ثم تنحسر عنها واهنة مخذولة .

إن الإسلام كفل للمسلمين التساند الاجتماعى ، وما يقيهم شر الحاجة ويدفع عنهم مصاعب الأيام ، وسبيله فى ذلك :

أولا — أنه فرض على كل مسلم أن يجعل لله حقاً فى ماله ، سواء أكان ذلك المال زروعاً ، أو حيواناً من إبل أو بقر أو غنم ، أو عروض تجارة ، أو ذهباً أو فضة ، أو مالا مقوماً من أى نوع ، بشرط أن يفيض عن حاجة المسلم من النفقة عليه وعلى عياله ، ومن تجب عليه نفقتهم ، وألا يكون مطالباً به فى دين أو نحوه ، وقد يبلغ ذلك الحق عشر المال — أى ١٠ ٪ — ثم حدد أيضاً وجوه الصرف لهذه الأموال التى تجتمع لدى

بيت المـال ، وجعـل مصارفها الفقراء والمساكين ، ومن انقطعت بهم السبل ، ومن أغرقهم دين لم يكن مسبباً عن معصية الله ، وغيرهم مما هو ثابت فى الدين ومعروف من مآخذه . ولقد طالب الله سبحانه وتعالى المسلمين بدفع هذه الزكاة فى مواضع كثيرة ، ولم ترد فى القرآن آية من الآيات التى تدعو المسلمين إلى إقامة الصلاة إلا مقرونة بدعوتهم إلى إيتاء الزكاة ، فالزكاة والصلاة ، فى الإسلام ، ركنان من الأركان التى قام عليها الإسلام ، ودعامتان متينتان بنى عليهما ديننا القوى . من ذلك قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »، و «ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة»، و « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لـكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون»، و « قدأفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » .

وهذا هو خليفة المسلمين الأول أبو بكر الصديق ، قام فى أشد أوقات المسلمين وأعصبها ، بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإعلان حرب شعواء على كل من امتنع عن تأدية هذا الفرض ، وتحمل فى سبيل ذلك تعريض المسلمين لهول فزع منه من كانت لا تفزعه الخطوب ولا تزعزعه الحوادث ، وهو الإمام عمر بن الخطـاب ، المعروف بشدته فى الدين وعدم الهوادة فيـه ، فجاء أبا بكر يطلب إليه التريث فى إعلان هذه الحرب حتى تمر الشدة التى هم فيها ، ولـكن صرامة أبى بكر فى دينه وتفانيه فى الإخلاص لأركانه ودعائمه ، دفعاه إلى ألا يبالى بمكروه يقع فيه ، وقال له : «والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه أو أهلك دونه » ، وقال:«والله لأقاتلن من فرق بين الصـلاة والزكاة ! » ، وخاض غمار هذه الحرب ،

وخرج منها ظافراً ، معزاً لدين الله ، ومثبتاً لأركان الإسلام .

إن الدين الإسلامى اتخذ طريقاً وسطاً حد فيه من طغيان الرأسمالية ، فأخذ من مال الأغنياء نصيباً مفروضاً يصرف الحاكم منه على الفقراء وذوى الحاجات ، كما ينفق منه على دور الاستشفاء ، وأماكن إيواء العجزة بحيث لا يترك لأمثال هؤلاء مجالا للشكوى ولا مسلكا ينفذون منه إلى سلب أموال الناس وأخذها بالباطل ، وغير ذلك من المسائل التى تذكى نارها فى نفوس الفقراء وسائل الرأسماليين ومكتنزى الذهب والفضة.

ثانياً — ومن المبادىء المقررة فى الإسلام أيضا حرية (الملكية الفردية واحترامها ، وأن لكل فرد أو يقتنى من المال ما تمكنه من إنشائه السبل المشروعة ومصالح الجماعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدى الفرض الذى أشرنا اليه من قبل ، وله فى كل حالة أن يتصرف فى هذه الأموال بما يراه ، وتبقى بعده تركته لورثته ، فى حدود القوانين الإسلامية التى جاءت فى نصوص القرآن فى مواضع كثيرة منه . وقد دعا الدين الإسلامى جميع المسلمين إلى التطوع بالإنفاق ، وشجعهم على التبرع لأعمال الخير ونهاهم فى كثير من المواقف عن الإفراط والتفريط ، فنهى عن السرف كما نهى عن التقتير ، فقال تعالى فى الحث على الإنفاق : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » . وقال تعالى «يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه». وقال تعالى فى التوسط والاعتدال « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، وقال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ،

يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وإنك لو تأملت فى حكمة الإسلام فى احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للمواريث ، لعرفت أن هذا من أكبر الدوافع التى تحفز الممولين إلى قوة الاستثمار والنشاط فى الإنتاج ، ويدعو إلى السهر على المصالح وبذل الجهود القوية فى تكثير الأموال ، وهو فى الوقت نفسه يحمى هذه الأموال من أن تعبث بها يد السرف والتبذير . فالرجل الذى يعرف أن الأموال التى بذل فى جمعها صحته وعقله ستصير بعد ذلك إلى الدولة ولا ينتفع بهـا بنوه بطريق مباشر ، ليس هناك ما يحفزه إلى ادخارها ويدفعه إلى المحافظة عليها . ولا يصح أن يقال إن قواعد التكافؤ الاجتماعى قد تغنى عن ذلك ؛ فإن الطبيعة البشرية التى تدفع الآباء إلى المحافظة على بنيهم وجمع الأموال فى سبيلهم ، لا يمكن بحال أن يغنى عنها أو يقوم مقامها مايدعيه ذوو الآراء الشيوعية الهدامة من مبادىء ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

وإنا لنقرر أن القرآن الكريم قد احترم الملكية الفردية فى حدود مصالح الجماعة وصانها بقواعد وحدود لا تجعلها عرضة للتلف ولا للضياع ونظم انتقالها إلى الأبناء والمستحقين ، وفصل القول فى قواعد المواريث وتحديد الأنصبة فيما تركه الوالدان والأقربون قل منه أو كثر ، فقال تعالى « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا » ، ثم قال تعالى بعد ذلك « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً » ،

ثم قال الله تعالى بعد ذلك « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » إلى آخر ماجاء فى هذه الآيات من بيان الأنصباء مفصلا ، ومن بيان الوصية التى للمالك فى ماله لمن شاء ، مما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك ، وانتقال هذا الحق من بعده إلى ورثته من أبنائه وأقربائه . ثم ختم هذا البيان الرائع بقوله سبحانه « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .

ومنع الزكاة إثم دينى واجتماعى خطير يصوره لنا ما كان من خليفة رسول الله أبى بكر الصديق ، وما شنه من حرب شعواء على المانعين للزكاة . وحكم الإسلام هو أخذهم بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة إليها ، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض . ولا يمكن بحال اعتبار هؤلاء من المسلمين الطيبين ، فهم عصاة يستتابون ليرجعوا عن غيهم ويؤمنوا بربهم . وإننا إن شاء الله سبحانه وتعالى نأمل أن نخطو خطوات واسعة فى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله .

الإسلام دعوة إنسانية عالية

مضى على وفاة محمد صلوات الله عليه نحو أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولا تزال ذكراه الخالدة ملء القلوب والأسماع ، وحديث الإنسانية الذى لا ينسى ، ونشيد الحياة الظامئة الى نبع هذا الإلهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة والعظمة الكاملة .

إذا ذكر المسلمون هذا العربى الأمى ، تقديساً للرسالة التى حملها أو بلغها عن الله ونشرها فى الخافقين ، وإيماناً بسمو ما أتى به من دين ، وأداه من عقيدة ، فإن الإنسانية كلها لتذكره لأنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها البر الرحيم ، والعلم المفرد فى تاريخها الحافل المديد .

إن عظمة محمد بن عبد الله ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، وليس مرجعها عظمة الأمة التى ظهر فيها . . . وليس مردها لحسب إلى جنسه وشرفه وجلال شخصيته وسمو خلقه وسعة أفقه، وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل المهذب فى الحياة ، وأنه عاش مع فقره مجاهداً ، ومات مجاهداً فى سبيل الله والحق والهدى والنور .

وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه رسول الله الذى اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ليبلغ كلمة الله إلى الأرض على فترة من الرسل ، وانقطاع الوحى عن البشر وبعد أن ضل الناس وجهلوا هداية السماء التى بشر من قبل بها الأنبياء والمرسلون .

وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات، وخاتمة النبوات، وبشر بدين الله بين الناس.. وإلى أن هذه الرسالة التى أداها عن الله هى دين البشرية عامة، وعقيدة الإنسانية قاطبة، وفطرة الله التى فطر الناس عليها،

بما حوته من دعوة إلى التوحيد المطلق، وحرية العقيدة، وتقديس للشرف والكرامة والمروءة والفضيلة، وتقرير لمبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة، وبسمو روحها، وجلال نزعاتها، ونبل أهدافها، ورفعها من كرامة الإنسان الأدبية فى الحياة، وباشتراكيتها العادلة، وديمقراطيتها الحقة، وما سنته من حب ورحمة وتعاون وشورى بين الناس، وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير، وشعور بالمسئولية، وتقدير للعهود والحرمات، وللعلم والعمران والمدنية، وحرب على الوثنية والشرك والضلال والفساد والرذائل والمنكرات والأهواء الضالة والشهوات الجامحة والأساطير الكاذبة والتقاليد البالية والأوهام الضارة.

ويحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية المطلقة، والزمالة البشرية المشتركة، وأنه حارب العصبيات والقيود الجائرة، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله، وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله.

فكانت هناك أخوة إسلامية كاملة، لوحدة الأمة وحفظ كيانها.. «إنما المؤمنون إخوة»، وبجانبها أخوة إنسانية عامة تجعل الناس جميعاً على اختلاف نزعاتهم وعناصرهم وأديانهم وألوانهم إخوة فى الإنسانية، إذ يفرض الإسلام أن يكون لغير المسلمين ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم من حقوق وواجبات «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منها

رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » .

هذه الدعوة الجديدة التى دعا إليها الإسلام كانت منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، وفى عصر يستحيل فيه التفاهم والتقارب والوحدة لسوء المواصلات ، وكثرة الجهل ، وقلة العمران والمدنية والحضارة ، وانتشار العصبيات .. ولم يدع المفكرون إلى بعض مبادئها إلا فى القرن العشرين ، بعد أن هيأت الحضارة أسباب التقارب والمودة والإخاء ، وكانت دعوة الإسلام إليها منذ ذلك العهد البعيد معجزة لهذا الدين ولرسوله العظيم الذى جعل الناس إخوة لافرق بين أبيضهم وأحمرهم وأسودهم وأعجميهم وعربيهم ، حتى لقد غضب رسول الله إذ أهان صحابى من صحابته عبداً أسود زنجياً فعيره بأمه وقال له يا ابن السوداء، ورؤى الغضب فى وجهه ، وقال : طف الصاع ... طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بتقوى الله أو بعمل صالح .

ثم لم تهدأ شعلة هذه الحياة المتقدة ، ولم ينطفىء مصباح حامل تلك الرسالة السماوية العظمى ، إلا وقد جمع محمد العرب عليها ، ودعا الملوك والأمراء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى كسرى وملك البحرين والحبشة وحاكم مصر وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أروع ما يقول فى رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (عامة الشعب)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً

أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ثم حمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم إليها وحمل الإنسانية عليها ، فوصلت عقيدة محمد إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ؛ ولم تزل هذه الرسالة عقيدة أكثر من سدس العالم المعروف اليوم ، ولن تزال حيَّة بما فيها من حياة وحرارة وتجدد ونمو .

ولقد اعترف أفذاذ مفكرى الغرب بفضل محمد على الحياة وبأياديه الجليلة على الحضارة . يقول تولستوى : «مما لا ريب فيه أن النبى محمداً من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة إلى الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام» . ويقول توماس كارليل فى كتابه الأبطال « إن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرناً لأكثر من مائتى مليوناً من البشر ، وإن رجلا كاذباً لا يستطيع أن يوجد ديناً وينشره ، وعجيب وأيم الله أمية محمد فلم يقتبس من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور »

وصدق الله العظيم حين يقول : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً .

الطريق إلى الدين

إن الإيمان بالخالق المدبر فطرى فى كل إنسان ، وليست الفطرة فى الإسلام ، عن طريق الوجدان هى طريق الإيمان بل أوجب الإسلام الإيمان عن طريق العقل والبحث والنظر .

وإذا كان العلم الناشىء عن الوجدان ، والعلم الناشىء عن البحث والتأمل ، والعلم الناشىء عن رسالات السماء ، كلها توصل إلى الله ، فإن الواجب فى الإسلام اقتران العقل بالوجدان فى البحث فى أمور العقيدة والدين والتوحيد ، وأصبح من الحتم على المسلم أن يجعل إيمانه صادراً عن تفكير وبحث ونظر ، وأن يحكم العقل تحكيما مطلقاً فى الإيمان بالله تعالى .

وهناك ما لا يستطيع العقل فهمه من الغيبيات ، التى أمر الله تعالى الناس بالإيمان بها ، وتلقى علمها من الكتب السماوية دون محاولة عرضها على العقل وذلك من مثل ما ورد عن الآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب وكذلك ما ورد عن بدء الخليقة .

إن العقل مهما تكامل فهو متفاوت النظر قصير الإدراك فى جانب علم الله الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، وقال الله سبحانه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، فكان من لطفه وإحسانه أن أرسل الرسل معلمين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وكان من لطفه وإحسانه أن أرسل إليهم الرسل بما يلزم معرفته

والإيمان به من علوم السموات والأرض منظمين لحياة الناس فى أسرهم وفى مجتمعهم وفى علاقاتهم كل أمة مع غيرها من الأمم حتى يعيشوا إخواناً متحابين ؛ ودلوهم على طقوس من العبادة تربطهم بخالقهم ، حتى تعز نفوسهم ولا تنكس رؤوسهم لغير خالقهم ، يعبدونه لا يشركون به شيئاً ، ثم كانت هذه الشعائر هى التى تهذب نفوسهم حتى تحسن علاقات بعضهم ببعض ، وحتى لا يتحاسدوا ولا يتباغضوا ويكونوا إخواناً متعاونين وإخوة متساندين . وقد أرادت أن تلزم الناس فجعلت لكل إنسان جزاء على ما يعمل (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ؛ حتى يحاسب كل إنسان نفسه قبل أن يحاسب ، وحتى يخاف ربه ، ويشفق من دينه ، فلا يفعل إلا خيراً ، فإن نسى أمر ربه وانحرف عن سبيل طاعته وأساء يوماً إلى نفسه أو إلى أخيه ، فإن أمره فى يسر بلا عنت ، وإن ربه رحيم به ، لا يوصد دونه باب الإصلاح والاستصلاح ، فليعد إلى ربه وليستغفر من ذنبه والله غفور رحيم : فمن أبى إلا أن يكون شريراً مفسداً ومعانداً مؤذياً فقد جعل له عقوبات فى الدنيا تزجره حتى لا يعود ، وتزجر غيره حتى يصد نفسه عن الشر . كل هذا ليسود الوئام والحب ، ولا يبغى بعض الناس على بعض ، وتتحقق الخلافة المنشودة . فما كانت مهمة الأديان إلا تعليم الناس وتوجيههم إلى الخير ، وما كانت فضولا ولا إعناتاً للناس . وإنما الفضول والإعنات أن يترك الناس هملا وأن يخلقوا عبثاً وأن يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسىء ، وأن يكون المسلم كالمجرم ، والمسىء كالمحسن .

هذا هو الخلاف بين رجال الدين والمنتسبين إليه وبين غيرهم من دعاة

الإلحاد والزندقة ، الذين يريدون أن يصرفوا الناس عن التدين بشبهة أنه يخالف المدنية ، « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » . وبالله لقد علموا لو كانوا يعلمون أن التدين لا ينافى المدنية الحق ، فإن المدنية الحق تقوم على نظام وتآلف ووطنية وصدق ووفاء وأمانة وقوة ودفاع وحرية ونظافة وعمل ونشاط ومعاملة دقيقة رقيقة وعدل وإحسان . وكل هذه هى مما يدعو إليه التدين بل تدور فى محوره . فليس يدخل فى مسمى التدين الصحيح رجل يشتمل على فوضى وإهمال ولا رجل يستهين بحقوق الآخرين ، فلا يرعى واجبهم أو يفرط فى وطنه فلا يفتديه بأعز ما لديه من مال ونفس ، أو رجل غاش أو خائن يستهين بكرامته فى سبيل توزيع سلع فيحلف كاذباً ، أو يبيع شيئاً باسم شيء سواه ، أو رجل جلف غليظ يسيء إلى الآخرين أو يأكل حقوقهم أو أموالهم بالباطل ، فكل طمع فى حق الناس وكل أثرة وأنانية وكل معاملة غير مرضية ليست مما يمت إلى التدين فى شيء، وقد جمع رسول الله ذلك كله فى كلمة واحدة « الدين المعاملة » ،

إن الإيمان بإله قادر عليم صانع حكيم مما دلت عليه الفطرة وهدى إليه الفعل ، فقالت به العامة والدهماء بمقتضى فطرهم وسذاجتهم ، كما قال به الحكماء والفلاسفة على مقتضى أدلتهم ومقدماتهم . . واستدل الأعرابى بالسماء وكوا كبها والأرض ومسالكها على اللطيف الخبير . وكما استدل بالنور على النهار وبالخطوة على السير ؛ وكما استدل الحكماء على وجود الله بترجيح الوجود على العدم وكل ترجيح لابد له من مرجح ، والمرجح هو الله تعالى .

وهكذا يتفق جميع العقلاء إلا من اجتالتهم الشياطين على إله مدبر لهذا الكون متصف بالكمال كله ومنزه عن النقص .

إن الأديان السماوية رحمة من الله بالعباد ، لتقيل عثار الإنسانية وتزيل تخبطات بنى آدم فى معاملاتهم ، وتحقق بينهم معانى الوئام والحب وترشحهم لخلافة الله فى الأرض إخواناً متحابين وإخوة متساوين . والعقل وحده لا يكفل هذه المعانى النبيلة ، ولا يحقق هذه الأخوة الهانئة السعيدة : فالعقل يتحكم فيه الهوى فيميل به إلى الظلم والبغى ، ولهذا يقومه الدين ، يقول الله تعالى « كونوا لله قوامين شهداء بالقسط ولو على أنفسكم أو الولدين والأقربين ». ويقول « كونوا قوامين شهداء لله بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » .

فالعقل وحده لا يغنى فى إصلاح النفوس ، وتقويم الأخلاق وإشاعة الحب المنشود . أليس العقل هو الذى سلط الماديين الأقوياء اليوم على الضعفاء ليستعمروهم وليسلبوهم حرياتهم ؟ والأديان السماوية تأبى ذلك وتقاومه ، أليس العقل هو الذى تفنن فى صنع الناسفات والمدمرات والأقمار والذرات وما إلى ذلك من الفضول ، تشقى به اليوم الإنسانية على حين تدعو الأديان إلى سعادتها ، وجمع شملها ؟

وبعد فإن العقلاء يتناقضون ويختلفون اختلافاً كثيراً جداً فى وجهات نظرهم تبعاً لاختلاف ثقافتهم ، وتعدد بيئاتهم ، وتضارب ميولهم وعصبياتهم ؛ بل العاقل الواحد يناقض نفسه فيقول اليوم غير ما قال بالأمس ، لأنه اليوم فى ظرف يختلف عنه بالأمس ، وفى جو غير جو الأمس وهكذا .

ولكن علم السماء واحد لا يختلف ، لأنه لا تتجدد به الأطوار ، ولا تختلف عليه الأجواء ، ولا وجود عنده لعصبية ولا هوى .

وصدق الله إذ يقول «أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون».

وإذاً فالأديان السماوية خير سناد للفكر، وموجه له، توفر على الناس تجاربهم، وتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وتحول بينهم وبين التورط في العصبيات الممزقة الشمل، والأهواء المصدعة للوحدة المنشودة، وصدق الله إذ يقول: «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

فالآية الكريمة تدل على أن الاهتداء بهدى الأنبياء ضرورى للبشر وأنه لا غنى لهم عنه مهما بلغوا من كمال العقل، فإن العقل لا سبيل له إلى الوصول للحق ومعرفة مايلزم لإنسان فى توفير مصالحه وتنحية الشر عنه. فالأديان إذاً خير معوان للناس على تحقيق مآرب البشرية فى حدود السلام والحب العام، فهى بر ورحمة بهم ولولاها لبلغ الحيف أقصى مداه، واضطربت بالناس سبل الحياة، كما ترى حين ينصرف الناس عن الأديان ويعرضون عما تلتزم به من رفق وحنان، ولهذا صح أن يقول الله لمحمد صلى الله عليه وسلم «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وقاتل الله هذا العلم الشيوعى فهو الذى فرق الجماعات البشرية وأدار رحى تلك الحروب بينها، وصير رقاع الأرض مجازر بشرية بدل أن تكون رياضاً فيحاء وجنات عدن لأبناء آدم الأخوة الصادقين عن الصراط المستقيم.

والإسلام إذاً واحد من تلك الأديان يمثلها فى أصول الخطط والتوجيهات، وإن يكن بينها وبينه اختلاف فمن حكم اختلاف الأزمان

والظروف والبيئات وما يستتبعه ذلك كما اختلف بعض الأديان مع بعض من قبل ، وكما يختلف المسلمون أنفسهم فى بعض أحكام المعاملات باختلاف البيئات والعرف والأزمنة ومستتبعاتها . وقد وسع الإسلام ذلك كله لأنه آخر الأديان ، وأوسعها رقعة، وأطولها مدة ولهذا تنوعت فيه الأحكام بين العزائم والرخص ، وتنوعت فيه تلك الرخص بما يرفع الحرج عن الناس فى معايشهم ، ويكلفهم بما يطيقون فى عبادتهم ، فالدين ليست مهمته الإعنات وإنما هو سناد للإنسانية وحاجز بين بعض العباد وبعض أن يختلفوا ، كما رأيت ؛ ومهذب لنفوسهم حتى لا يضلوا ، ومبين لهم حتى لا يضطربوا ؛ والله بكل شىء عليم.

إن من العجب أن ينكر الشيوعيون الدين ؛ وهو حق لا ينكره إلا من بعقله خبل . تالله لقد كفروا بأنفسهم وضل سعيهم ، وما العقائد إلا معنى متأصل فى النفوس مركوز فى الفطر ، لا يذهب إلا إذا انسلخ الفرد من إنسانيته ورضى أن يكون حيواناً بهيماً لا يفقه حديثاً ولا يرقى منزلة ، ويومئذ تميد الأرض وتزول الجبال وتخلو الدنيا من القائمين بالأمر ، يومئذ لا يجد الناس قائماً على شئون الناس فيهلك العالمون ؛ ويفنى الباقون .. حينئذ تذهب خلافة الله ، وإذا ذهبت خلافة الله من الناس ، فقد قامت قيامتهم ولم يكن فيهم صلاحية للبقاء .

من العجب حقاً أن ينكر الشيوعيون الأديان وفيها توجيه العالمين ، وفيها تقاليد الفضائل ومقاييس الحياة الصالحة ، وفيها الخير لهم لو يعلمون علم اليقين ، قالوا إن الأديان أفيون الشعوب ، والأفيون ما هم فيه من الترهات والافتعالات . وأما الأديان فهى نور للناس تمشى بها . إن الأفيون هو تلك الشيوعية التى طالما ضللت الناس عن القصد وأغوتهم

بالشهوات ، وهى للسم الزعاف والمفرق لكلمة الناس والموقعة للعداوة والبغضاء، لأنها لم تنظم على وفق مارسمت الأديان. إن هذه الإباحية والتحلل إن نجحت فإلى حين قريب ، ثم يموج بعض الناس فى بعض ويبغى بعضهم على بعض ويرتفع الهدوء والسلام . ويذهب الحب والوئام لا محالة ، فالرغبات متعارضة والميول متضاربة إن لم يكن بعين الأفراد فبعين الشعوب ، ولا حكم بين الناس مثل الأديان التى خلت من الهوى وتجردت من كل معنى إلا إشاعة الحب بين الناس فى كل زمان وفى كل مكان ، « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ـ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » .

إن بين الشيوعية والدين عداوة شديدة وحرب لا هوادة فيها ولا مهادنة ، وهذا أمر طبيعى ، فإن الشيوعية نظام يستمد فكرته من نظرية فلسفية ملحدة تزعم أن كل ما يقع فى التاريخ من حركات ، فإن مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية ولا مرجع له غيرها ، ومادامت الأسباب الاقتصادية — دون غيرها — هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء ، فلا مجال هناك للاعتراف بالخالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصائرهم بقدرة وإرادة . والشعور الدينى عندنا وعند كل ذى دين فى الأرض ، هو إحساس طبيعى فى الإنسان يشعره بأن من فوقه قوة عليا توجهه وتسدده فى طريقه ، وتعصمه من اليأس فى ساعات الحرج والشدة ، وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب ،

وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء أو للشهوات والنزوات والمطامع الفردية ، وتربط البشر بعضهم إلى بعض بروابط تجمعهم على الأخوة الإنسانية المتعاونة من غير انتظار لجزاء مادى أو غير مادى يلقاه الإنسان على الأرض ، فهو إذن شعور مثالى لا يتم تمام الإنسانية إلا به ، ولا يتحقق السلام على الأرض بغيره .

ولكن الشيوعيين أتباع « ماركس » لا يرون فى الدين هذا الرأى ، فليس الدين عندهم إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية ، وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البالية ، ولوناً من الخداع صنعه بعض الناس ليستعبدوا به كل الناس ، فهو عندهم مظهر جهل ووسيلة استغلال وحيلة مخادع ، ومن واجب الشيوعيين أن ينبذوه ويتحللوا من قيوده ويبرأوا من كل آثاره . كذلك يقول الشيوعيون ويلقنون أتباعهم بصراحة مكشوفة ، وبلا مواربة .

ويفيض فلاسفة الشيوعيين فى تبرير إنكارهم للدين ومحاربتهم له ؛ فيزعمون أن الدين خرافة وجهل ، ويعللون انتشار الأديان بالظروف المادية التى عاش فيها الإنسان الأول ، فيقولون « إن الإنسان الفطرى فى العهد البدائى كان يقف عاجزاً حائراً أمام الظواهر الطبيعية كالرعد والفيضانات وغيرها ، وكان جهله بأسباب تلك الظواهر يجعله يردها إلى إرادة عليا ، يسعى إلى كسب عطفها والتماس أسباب الزلفى إليها بتقديم القرابين واصطناع ألوان العبادات ، ومن ثم نشأ الإيمان بالقوى غير المنظورة ، وعبادة تلك القوى ، ثم استفاضت تجارب الإنسان ، واتسعت آفاق معرفته ، وأنارت الكشوف العلمية بصيرته ، ولكن نظام الرأسمالية الجاثم على صدور الناس ظل يخضعهم لقوى أمضى سطوة من

القوى المجهولة التى كان يخضع لها الإنسان البدائى ؛ فرأس المال يستطيع أن يسلط على الإنسان الفقر والبطالة ، ويعرضه للأزمات المالية المذلة والحاجة الملحة ، فيجد نفسه مضطراً إلى الاستعانة بالقوى غير المنظورة أى بقوة الله ؛ وهذا الإيمان يلائم الطبقة المستغلة ، إذ يصرف جموع الشعب عن الكفاح فى سبيل السعادة الدنيوية ويجعلها تتعلق بأوهام البعث ، ويغرى الدين الناس بأن يشتغلوا بالعبادة ويخضعوا للطبقة المستغلة ، ويتقبلوا النظام الرأسمالى على أنه نظام لا مفر منه وقضاء لا مرد له ، ومن شأن الطبقة البورجوازية أن تؤيد الروح الدينية لتضمن سيطرتها على الطبقة العاملة ، كما يشجع المستعمرون الأديان لتعيش جماهير الشعب فى البلاد المغلوبة على أمرها سادرة فى ظلمات الجهل والاستسلام . وهذا فى رأى الماركسيين سبب تعاون المستعمرين مع رجال الدين ، ممثلى الرجعية »[1] .

ولكارل ماركس كلمة مشهورة عن الأديان جرت فى أفواه الشيوعيين مجرى الحكم والأمثال ، وهى : « إن الدين أفيون الفقراء » ! . وللزعيم الشيوعى لينين كلمات مأثورة فى الحملة على الدين والحض على الإلحاد وتسفيه المعتقدات الدينية ، منها قوله : « الماركسية هى المادية ، وهى من ثم معادية للدين ! » . وفى فلسفة المادية أن « ليس هناك حقيقة سوى المادة ، ولكن هذه المادة ليست شيئاً مجرداً ، وإنما هى تشمل الإنسان وأعماله ، ويتكون التاريخ من عمل الإنسان فى المادة وتأثير المادة فى الإنسان ، وبين الإنسان والمادة تأثير متبادل ؛ فالمادة تغير من الإنسان

---

(١) عن كتاب « حقيقة الشيوعية » — تقديم الرئيس جمال عبد الناصر .

والإنسان فى دوره يغير فى المادة لتلائم حاجاته وتقضى لبأناته . وعلاقة الإنسان بغيره أساسها الإنتاج والاستهلاك ، وهو باعث الحركة الديالكتيكية التاريخية وصراع الطبقات ، وتقضى الحركة الديالكتيكية بأن يظل الصراع قائماً بين الفقراء المستعبدين والأغنياء المستغلين ، حتى تحدث الثورة ويحطم العمال النظام الرأسمالى ويتحقق الفردوس الأرضى، ولا مكان للروح فى مثل هذه الفلسفة ، وإنما يمتاز الإنسان عن الحشرات والسائمة بقدرته الفنية ، وليست هناك حياة أخرى ولا عالم روحى ولا حرية ، لأن الإنسان خاضع للضرورات المادية ، وأما الآداب والأخلاق فليس لها مصدر علوى، وإنما هى وسيلة لحفظ المجتمع. ومن أقوال لينين فى ذلك « علينا أن نكون مستعدين لكل لون من ألوان التضحية ، وإذا استلزم الأمر فإننا نمارس كل شىء ممكن ، فالحيل وفنون المكر وكل الأسباب غير الشرعية جميعها مباحة ، وكذلك السكوت وإخفاء الحق.. وموجز القول أننا نستخلص الآداب من مصالح حرب الطبقات ! » . ويقول أحد الماديين فى تقديمه لكتاب لينين عن الدين ، « الإلحاد جزء طبيعى من الماركسية لا ينفصل عنها ».

وفى برنامج المؤتمر السادس للدول الشيوعية الذى عقد فى سنة ١٩٢٧ ما يأتى : « الحرب ضد الدين — أفيون الشعوب — تشغل مكاناً هاماً بين أعمال الثورة الثقافية. ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة . وحكومة العمال تعترف بحرية الضمير ، ولكنها فى الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التى تملكها للقيام بدعاية ضد الدين ، وتنظم التربية على أساس التصور المادى للدنيا » . ويقول لينين فى فصل له عن « الاشتراكية والدين» مايلى: « الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم فى الفقر

الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ، ويغريهم بالأمل فى المثوبة بالعالم الآخر ، ويضرب لينين على هذه النغمة فى فصل له آخر عن موقف حزب العمال من الدين فيقول : « قال ماركس إن الدين هو أفيون الفقراء وهذا حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين ، وتعد الماركسية الديانات الحديثة جميعها ، والكنائس ، وكل أنواع المنظمات الدينية آلة لرد الفعل البورجوازى الذى يستهدف الاستغلال ضد مصالح الطبقة العاملة » . وفى كتاب أرسله لينين إلى الكاتب الروسى ماكسيم جوركى يقول لينين : « إن البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شىء غير موجود، وبدون أن نزرع لا نستطيع أن نحصد وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد ، والآلهة لا يبحث عنها وإنما تخلق [1] .

كذلك أصدرت الحكومة السوفيتية فى ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ مرسوماً حدد مسألة حرية الدين وموقف الدولة السوفيتية تجاه الدين والجمعيات الدينية ، وقد أعلن هذا المرسوم التاريخى ما يلى :

١ — الكنيسة منفصلة عن الدولة .

٢ — محظور إصدار أية قوانين محلية أو لوائح فى أراضى الجمهورية يكون من شأنها عرقلة أو تقييد حرية الضمير ، أو إيجاد أية امتيازات أو ميزات على أساس معتقدات المواطنين الدينية .

٣ — كل مواطن له أن يعتنق أى دين، أو لا يعتنق أى دين على الإطلاق .

٤ — لن تجرى أية مراسم أو احتفالات دينية فى أى عمل من أعمال الدولة أو فى أى احتفال رسمى عام أو اجتماعى .

---

(١) المرجع السابق .

٥ — حرية القيام بالطقوس الدينية مكفولة الى الحد الذى لا يؤدى إلى اضطراب النظام العام ، إذا كانت غير مصحوبة بالتعدى على حقوق المواطنين فى الجمهورية السوفيتية .. وللسلطات المحلية الحق فى اتخاذ جميع التدابير اللازمة فى هذه الأغراض لضمان المحافظة على النظام العام والأمن .

٦ — لا يستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنية .

٧ — يلغى كل قسم أو عهد دينى ، وفى الأحوال الضرورية يكتفى فقط بالوعد الصادق .

٨ — تقوم السلطات المدنية — وحدها — بجميع أعمال التسجيل المدنى عن طريق مكاتب تسجيل الزواج ، والميلاد .

٩ — المدرسة مفصولة عن الكنيسة ، والتعليم الدينى محظور فى جميع المدارس العامة والخاصة . ويتعلم المواطنون الدين على انفراد(١).

---

(١) المرجع السابق .

كل الطرق توصل إلى الله

نحن نعيش اليوم فى معركة الإيمان، معركة حقيقية مع خصوم الدين، مع الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومع الذين يزعمون أن الإيمان والأديان والبعث والقيامة والملائكة وسائر أمور الغيب إن هى إلا خرافة، وإن هى إلا دجل، وإن هى إلا استغلال لعواطف البشر ... هكذا يقولون ويزعمون، وبئس مايزعمون. ونجادل هؤلاء الشاكين فى الدين وفى الله وفى الرسل، ، فنجد عقلا فارغاً، وقلباً جاحداً، وضلالا استحوذ على أنفسهم، وسولت لهم الشياطين هذا البهتان، وهذا الكفران، وسارت بهم فى صحراء مظلمة ليس لهم ولا لمن يضللونهم منجاة منها إلا من عصم الله.

يقولون «إن العقل قد ارتقى فى عصر العلم، وإن الآلة سحقت كل شىء، وإن الحياة ليس فيها إلا جبروت هذه الآلة التى يقودها عقل الإنسان، فالعقل يجب ألا يخرج عن نطاق العلم التجريبى، وألا يسير وراء الأوهام، وأن يعمل مؤمناً بالحياة وحدها» هكذا يقولون ويسرفون ويبالغون، ويستمرون فى مزاعمهم الباطلة، وفى جحودهم المطلق، وفى كفرهم الصريح، وفى دعوتهم إلى الإلحاد والثورة على الدين والمتدينين... إنها ثرثرة فارغة وقول هراء، وأكاذيب ملفقة، بل ضلال وبهتان لاحد لهما. ولو استمع هؤلاء لصوت ضمائرهم، ولو ركنوا إلى الحق قليلا، ولو أنصتوا لحكم التفكير الصحيح، لعلموا أن ما يتقولون إن هو إلا باطل وضلال مبين، وزور من القول وبهتان عظيم. إن العقل يرشدنا دائماً إلى الله وإلى الدين وإلى الحق.. العقل المجرد من الهوى

المنزه عن الغرض ... العقل البرىء الذى لم تلوثه الشهوات ولا المطامع ولا الأغراض ولا العصبيات ، فالعقل دائماً يقف مؤمناً بالله وبالرسل وبالدين وبوجود الملائكة وبالآخرة وبالبعث وبالنشور والحساب ؛ لأن العقل يأبى أن يرى قدرة الله وآثارها الظاهرة فى السماء والأرض وفى خلق الإنسان ، ثم يكفر بوجود الله ، ولأن العقل لا يستطيع أن يفهم أن الحياة خلقت عبثاً ، ولا أن الناس خلقوا سدى ، ولا أن الإنسان يعيش لدنياه فحسب ، ولأن العقل يأبى أن يصدق مزاعم الجاحدين والكافرين والمشركين : من أن الدين خرافة ، وأن الحياة ليس وراءها بعث ولا نشور ولا حساب .

إن العقل دائماً فى صف الإيمان . إنه يقف مشيراً إلى وجود الله وقدرته ، إنه يقول ما قال القرآن الكريم : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » ، العقل يقف متعجباً من خلق الإنسان ، وما ركب فى جسمه من أذنين وعينين وساقين ويدين ، وما أودع فى جوفه من قلب ، وفى رأسه من عقل ، ولا يجد مناصاً من أن يعترف بأن خالق ذلك كله هو الله الذى أتقن كل شىء صنعاً ، وأحسن كل شىء خلقاً . والعقل يدعو القرآن الكريم إلى جعله طريقاً من طرق المعرفة ، ووسيلة من وسائل الإدراك . يقول الله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد » . ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » . ويقول : « ومن الناس

من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » . . فى هذه الآيات الكريمة تحديد واضح لمنهاج المعرفة ومذاهب التفكير والفهم عند البشر ،وقد عنى القرآن الكريم فى هذه الآيات وفى سواها مما لم نذكره أن يوضح للبشر دون لبس منابع الحقيقة واضحة بينة حتى لا يضلوا فى الحياة ، أو يتشعب بهم الظن فى مجال البحث واليقين ، وحتى يبنوا عقائدهم وآراءهم على أساس سليم مستقيم ؛ فى الآية الأولى يذكر الله عز وجل صنيع بعض المشركين المتمردين على عقيدة التوحيد ، الدائبين على اللجاج والجدل فى الله ، دون أن يرتكز لجاجهم وجدلهم على دعامة من العلم والبرهان والمنطق . ودون أن يخضع نقاشهم لحكم العقل والإنصاف ، وإنما يخبطون خبط عشواء ، ويسيرون فى صحراء ظلماء ، لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يحاولون الرجوع إلى الحق أو التزامه أو الدفاع عنه . . فهم ينازعون فى ذات الله وفيما يجوز عليه وما لا يجوز من صفات وأفعال ، ويقولون من الأباطيل ما يقولون ، ملابسين للجهل ، ويتبعون فى أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم كل شيطان عات ضال مضل عن سبيل الله ، وذلك من أشباه : أبى جهل ، والأخنس بن شريق ، والنضر بن الحارث ، وسواهم . وكان النضر يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين . ويقول : إن ما يأتيكم به محمد هو ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية . ويقول : الله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً ، وكان يذهب إلى فارس فيشترى كتب الفرس وأساطيرهم فيحدث بها قريشاً ، ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ،

والآية عامة فى كل من أمعن فى الجدل دون علم أو برهان ، ومن يضل ويضل بذلك عن سبيل الله ودينه وشريعته .

وكذلك الآيتان الأخريان من سورة لقمان تؤكدان هذه المعانى ، وأن من الناس من يدأب على الجدل فى ذات الله وصفاته ، أو فى دينه وشرائعه دون علم واستبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلى ودون هدى وإرشاد ، متفادين كل هاد ومرشد من الرسل والأنبياء ، ودون كتاب منير واضح جلى هاد لاخفاء فى هديه ، منزل من الله عز وجل إلى رسول من رسله المكرمين ، فهو لا يؤمن بالدين وإنما يؤمن بالأوهام والتقاليد والأساطير الكاذبة يتخذها منهجاً له فى التفكير والبحث ، ويهمل عقله إهمالا ، ويفسد فطرة الله فى نفسه إفساداً شديداً ؛ وهل هناك ما هو أضر على الإنسانية من التقليد الأعمى والاتباع المرذول ، وهل حارب القرآن الكريم شيئاً كما حارب التقليد وصنيع المقلدين ، ولذلك ذهب الأئمة إلى أن التقليد فى أصول العقائد ضلال غير جائز حتى قال الرازى : «وأكثر العلماء على أن التقليد لا يكفى فى أصول العقائد» ؛ ويؤكد القرآن أن مثل هؤلاء إنما يتبعون سبيل الشيطان ، والشيطان إنما يدعوهم إلى عذاب السعير .

أما الآيات الثلاث الأخيرة وهى من سورة الحج ، فهى كذلك تأكيد لهذه المعانى الشريفة وتقرير لها ، وتوضيح لصنيع هؤلاء الناس، الذين يتخذون الجدل بالباطل وسيلة للضلال والإضلال عن سبيل الله ، فهم لا يرجعون فى جدلهم فى الله الى العلم أو الهدى أو الكتاب المنير ، وهنا يفسر المفسرون العلم بالعلم الضرورى ، والهدى بالاستدلال والنظر الذى يهدى الى المعرفة ، والكتاب المنير بالوحى . وإن كنا نحن لا نرى مانعاً من تفسيرها بما فسرناها به آنفاً ، أو بما فسرها به المفسرون هنا ،

أو بتفسير آخر نذهب اليه ونرجحه ، وهو أن المراد بالعلم الحقائق التى تستقر فى النفس ، ويرشد إليها التفكير والبحث والدليل والتجربة ، والهدى المراد به الإلهام النفسى الذى تمده فطرة الله فى النفس الإنسانية التى فطرها الله على التدين والإيمان ، والكتاب المنير هو المنزل من السماء على رسول من الرسل يدعو الى مبادئه ، ويبشر بشريعته ، وتكون أقواله وأفعاله تفسيراً لما تضمنه من أحكام وآداب وشرائع وشعائر وعقائد ومثل ، ويؤكد الله عز وجل هنا ان الإعراض عن الحق والاستكبار عن السماع من الرسل هما ديدن هؤلاء الناس الذين حاربوا الرسالات الإلهية ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله ، وأن لهم خزياً وهواناً فى الدنيا وعذاباً أليما فى الآخرة ، بما اجترحوا من سيئات وما اقترفوا من آثام فى حق الله والعقل والإنسانية والشعوب والجماعات ، والله عادل فى عقابه لا يظلم أحداً ، ولا شك فى أن مثل هؤلاء يستحقون هذا العذاب ، فقد صدوا عن الله ودينه وتوحيده ، وجادلوا فى الله مجادلة عن عناد واستكبار ، دون أن يخضعوا فى جدلهم وحجاجهم لأصول العقل أو برهان العلم أو هداية السماء ، فإذا ما حاولت إقناعهم وإرشادهم وهدايتهم أصروا واستكبروا استكباراً ، وجادلوا بالباطل وقالوا زوراً وبهتاناً ، وأخذوا يثرثرون بما لا يعقله العقل ، ويهرفون بما يزينون من الشرك والضلال والإضلال . وهنا نجد القرآن الكريم يبنى صرح الحياة الإنسانية المثلى ، ويقيم دعائم المدنية والحضارة على أساس رائع عظيم من الفطرة والعقل وهداية السماء . فهذه الآيات ، وإن تضمنت فى عمومها بيان جزاء الصادين عن دين الله الذين يضلون ويلوون رؤوسهم عناداً واستكباراً فى الدنيا والآخرة ، كما تضمنت التحذير من الجدل والمناظرة فى العقيدة بالهوى والقياس ، لأن فى ذلك الضلال والابتداع والتحذير

من التقليد الأعمى المرذول، وتعطيل حكم العقل بالسير على منهج الآباء والأجداد فى كل شىء حتى فيما يؤدى إلى الضلال والبهتان والشرك، ومع أنها تضمنت كذلك نفى الظلم عن الله وبيان أن الإنسان هو الذى يجنى على نفسه بعناده واستكباره ومشايعته للباطل .. فهى كذلك تقرر أصول المعرفة الثلاثة : العلم الفطرى المركوز فى طبائع الناس كافة الذى يرشد إلى الخير والفضائل والتوحيد والإيمان ، والعلم النظرى المستفاد من الحجة والاستدلال والبرهان والبحث والتجربة ، والعلم الإلهى المستفاد من الوحى والكتب السماوية المنزلة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. فأنت إذا خلوت إلى وجدانك وقلبك وذوقك ونفسك وعواطفك ومشاعرك ، أرشدتك إلى الله موجوداً ، وإلى القدس الأقدس خالقاً ، وإلى رب الأرض والسماء إلهاً معبوداً ، وإلى محمد رسولا ، وإلى القرآن كتاباً منزلا من السماء ، فرض الإيمان به وبجميع ما تضمنه من أوامر ونواه ، ومن طاعات وعبادات وشرائع ، على الناس كافة . وأنت إذا رجعت إلى عقلك وخلوت إلى فكرك ؛ وبحثت وفتشت ، وقدرت ونظرت واعتبرت ، هداك العقل إلى الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . وأنت إذا رجعت الى القرآن كتاب الله الحكيم ، ودستور الإسلام العظيم ، أرشدتك الى الله رباً ، والى الإسلام ديناً ، والى محمد نبياً ورسولا ، والى الملائكة جند الله ، والى البعث والنشور والحساب ، وكل ما جاء فى الدين من الغيب ، مما فرض الله الإيمان به ، « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ،

وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون».

والمؤمنون يرون أن المعرفة بالله عن طريق الاستدلال والنظر والمنطق والقياس مرحلة بدائية من مراحل الإيمان ، لأنهم لا يعتمدون على العقل كثيراً كطريق من طرق المعرفة ، كما لا يعتمدون على الحواس الظاهرة فى الإنسان ، إنما يعتمدون على القلب الذى هو مركز المعرفة وموضع الإيمان ، ومحل الدين ؛ إنهم يفتشون فى وجدانهم فيجدون الله منقوشاً على كل ذرة ، مضيئاً على كل شىء ، مشرقاً فى كل جارحة وكل قلب . إنهم يرون الله فى السماء وفى الأرض وفى كل شىء . . يرونه عن طريق الكشف والذوق ، يرونه بوجداناتهم وقلوبهم ومشاعرهم وعواطفهم ، ويؤمنون به إيماناً صادقاً لا يزعزعه شىء ، ولا يؤثر فيه أى شىء . لقد جاهدوا أنفسهم وطهروها ، وأخلصوا لله حتى كشف عنهم حجاب الحس ، ورأوا الله بعين الإدراك وعين اليقين ، فعبدوه حق عبادته ، وأطاعوه حق طاعته ، ففازوا فى الدنيا والآخرة برضائه ومحبته ، أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

٢

إن المذهب الواقعي يرى فى المعرفة أنها ما يطابق الواقع ، فوجود العالم الخارجي هو وجود واقعي حقيقي مستقل عن الذات ، فالمعرفة عنده هي صورة مطابقة للموضوع لا أثر للذات أو للعقل فيها ، ويرى الفيلسوف الإنجليزي « جون لوك » أن المعرفة ، وإن تكن مستمدة من الواقع عن طريق الحواس فإنها مع ذلك ليست فى مجموعها صورة مطابقة للواقع تماما ، لذلك يحلل « لوك » المعرفة أو الأفكار ليبين ما يطابق منها الواقع وما لا يطابقه ، فالمعرفة عند « لوك » ، وإن كانت مستمدة من الواقع ليست فى مجموعها صورة مطابقة للواقع ؛ فبعض عناصر المعرفة عنده موضوعي يصور الواقع كما هو تماما ، وبعضها ذاتي من نتاج العقل ولا يصور الواقع بل هو تحوير للواقع .

وأما المذهب العملي فلا يفصل بين الفكر والعمل ، فالمعرفة عنده ليست تصوير الواقع كما يذهب الواقعيون ، وإنما هي أداة للسلوك أو خطة تقود إلى عمل ، والفكرة عنده هي تصور النتائج العملية التي يمكن أن تترتب على الاعتقاد بفكرة ، ومعيار الصدق والكذب فى المذهب العملي هو الاختبار العملي للفكرة من حيث نتائجها لا من حيث مصدرها وأصلها ، وهذا فيه الكثير من الإسراف ؛ فإن الفكرة تكون صادقة أو كاذبة بصرف النظر عن النتائج العملية .

أما المذهب المثالي فهو عكس الواقعي ، إنه ينكر وجود شيء خارج العقل ، ويزعم أن « ماله وجود هو العقل ، وما بالعقل من أفكار »

فالشيء لا وجود له إلا إذا كان فكرة فى العقل ، ومعرفة الشيء هى وجوده ، فالشيء موجود فى المذهب المثالى لأنه مدرك ، وفى المذهب الواقعى : الشيء مدرك لأنه موجود ، فالموجود فى المذهب المثالى هو الإدراك ، ومعرفة الشيء هى وجوده ، فطبيعة المعرفة هى هى طبيعة الوجود ، ومن دعاة المذهب المثالى « هيجل » الذى يرى أن المعانى الكلية أو المقولات هى مبدأ المعرفة أو شرط المعرفة والمعرفة عنده هى الوجود .

ومصدر المعرفة عند أصحاب المذهب التجريبى هو التجربة الحسية ، وعند أصحاب المذهب العقلى هو العقل وحده ، ويمثل ديكارت هذا الاتجاه ، وأما المذهب النقدى فيرى أن مصدر المعرفة هو التجربة والعقل جميعاً ، فالتجربة تقدم مادة المعرفة والعقل يقدم صورة المعرفة ، ويمثل هذا المذهب « كانت » . أما المذهب الروحى فيذهب إلى أن مصدر المعرفة هو الإلهام .

وعندما نرجع إلى ديكارت نراه يقيم الأدلة على وجود الله من أن فى الذات فكرة واضحة متميزة لكائن لا نهائى كامل ، ووجود هذه الفكرة فى العقل دليل على وجود مدلول لها فى الخارج هو الله ، وإثبات وجود الله كما يرى « ديكارت » وسيلة لإزالة الشك ولبلوغ اليقين فى المعرفة ، فالله الذى أثبتنا وجوده لا يضللنا ولا يخدعنا ، وإذن فحواسنا التى وهبها الله لنا لا بد أنها صادقة — غير خادعة ، والعالم الخارجى الذى خلقه الله لا بد أنه حقيقة وليس وهما ، وينتهى ديكارت إلى أن معرفتنا عن العالم الخارجى التى مصدرها الحواس ليست معرفة يقينية بعد أن اعتبر العقل وحده مصدر المعرفة اليقينية .

وهذه المذاهب المضطربة كلها تنتهى بالخطأ حينا ، وبالقصور حينا آخر، وقد شك الغزالى فى مبادىء العقل ، ولم يطمئن إلى شهادة الحواس ، ولم يسلم بآراء الذين يبنون آراءهم فى الله على النصوص وحدها ، ولا بآراء الذين لا يؤمنون إلا بالمنطق وحده كطريق يوصل إلى الإيمان بوجود الله ، ورجع المعرفة إلى الإلهام ، فهو الطريق إلى معرفة الله والإيمان به ، وعن طريق الإلهام يعرف الإنسان ذاته معرفة مباشرة ، ومتى عرف ذاته عرف الله .

إن جميع الطرق الصحيحة الموصلة إلى المعرفة توصل أيضاً إلى الله ، وأنا لا أؤمن إلا بما ذكره القرآن الكريم من طرق المعرفة ، وهى النظر العقلى ، والوحى السماوى ، والإلهام . . فهذه الطرق توصلنا إلى الله ، وتدفعنا إلى الإيمان ، وتحتم علينا الثقة بالله ووجوده ، وهى كلها تناهض المذاهب الماركسية والوجودية ، وتناهض الإلحاد والملحدين والشك والشاكين ، والريب والمرتابين .

إنى أؤمن بالله لأن عقلى يقودنى إلى الإيمان به ، ولأن نصوص القرآن تحتم على الإيمان به، ولأن عقلى الباطنى وإلهامى النفسى الخفى يدفعنى إلى الإيمان به ، بوجوده ، بعدله ، بقدرته ، بحكمته ، برحمته . .

آمنت بالله ، وكفرت بالإلحاد ودعاته والملحدين ودعواتهم ، آمنت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن دستوراً كاملا للحياة والبشر والإنسانية .

إخناتون والتوحيد

يقول إخناتون فى نشيد له :

« أيها الإله الأوحد . .

الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه . .

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً » .

وقد اشتهر اخناتون بأنه أول دعاة التوحيد فى أرض مصر القديمة ، وأنه خاض غمار حروب عاتية بينه وبين كهنة آمون ، وقد جلس اخناتون فى معبده الضخم فى الكرنك ، ودانت له طيبة ، وسيطر على أقطار الإمبراطورية من أعالى الفرات شمالا الى أقاصى السودان جنوبا ؛ وقد تميز بدعوته إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، بشرهم به ، وقال عنه : إنه إله الإنسانية جمعاء والأمم جميعاً ، إذ ذكر فى نشيده البلاد التى يوليها الإله رعايته قبل أن يذكر مصر ، وكان هذا الإله ليس مجسما فى صورة البشر بل كان هو الحق خالق حرارة الشمس ومغنيها . .

وقد ولد اخناتون عام ١٣٨٢ ق . م من أبويه الملكين : « امنحوتب الثالث ، وتى ، وسمى امنحوتب الرابع . . وتولى عرش مصر ، ودعا الى عبادة « أتون » إلها واحداً ليس له مثيل ، ويذهب البعض إلى أن وحدانيته لم تكن وليدة تفكيره ووحى فلسفته ، بل هى مأخوذة من التوراة ، زعماً منهم بيداية ظهورها قبيل عصره .. والحقيقة التى يؤكدها التاريخ أن اخناتون عاش فى عصر سابق لعصر ظهور المزامير .

على أن ديانة المصريين القدماء بما فيها من تعقيد ، وما تحويه من كثرة للآلهة قد نوهت منذ أقدم العصور بإله واحد يتجلى ذلك فى كثير من أقوالهم ، ومنها الحكم والأمثال والتحذيرات التى كان يلقنها المعلم لتلاميذه فى المدارس . وقد اعتنقوا منذ عصوره مبكرة ديانة الإله الواحد . وقد كتب كل من الأخوين « سونى » و « وحور » على لوحتيهما ، وكانا من المهندسين المعماريين الذين سكنوا طيبة فى عصر الملك امنحوتب الثالث ، ما نصه : « إنك صانع ، إنك خالق ولم يخلقك أحد ، إنك وحيد فى صفاتك ، تتحرك أبدياً ، وتخترق طرقا يتبعك فيها الملايين عندما تعبر السماء . تتطلع إليك كل الوجوه . . خالق كل شىء وهو الذى يضمن لها الحياة ، إنك خالق له حنكته ، وراع شجاع يعرف كيف يقود ماشيته ، وهو ملاذها ، ومدبر حياتها ، إنه يشرف على ما خلقته يداه . .

وإذا كان الإله « حوريس » له الصدارة فى الأسرات الأولى من التاريخ المصرى القديم ، فقد ظهر « رع » وسيطر على اللاهوت المصرى منذ عصر الأسرة الخامسة من الدولة القديمة ، ولم يستطع « آمون » الذى ظهرت دعوته منذ الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى (٢٠٠٠ ق م) أن يتصدر الآلهة ويصبح إلها للدولة إلا بعد أن ضموا إليه صفات « رع » وأصبح « آمون رع » وأصبح إلها للإمبراطورية وملكا للآلهة .

فلسفة خاطئة

تقوم مادية ماركس الجدلية — التى عاوض بها مثالية أستاذه هيجل ، وإن احتفظ بمنهج أستاذه الجدلى — على أصول كثيرة معقدة .

فالجدل (الديالكتيك) الذى كان يعبر عند هيجل عن قانون الفكر أصبح عند ماركس يعبر عن تطور الأشياء . ولا سيما الهيكل الاقتصادى للمجتمع البشرى ، وبينما كانت الطبيعة محصول الفكرة عند هيجل أصبحت الأفكار عند ماركس انبجاسا عن الطبيعة المسرعة ، فى سيرها نحو التطور ؛ وقضايا الجدل الكبرى ، ومجالات الجدل ، وقانون وحدة المناقضات وقانون العبور من الكمية إلى الكيفية ، وقانون نفى النفى . . كلها عناصر فى فلسفة المادية التى تتجمع عناصرها كلها فى إعلان الحرب على الدين .

ومن العجب أن يركز الماديون فلسفتهم فى المادية الجدلية ، الملحدة، التى لا تؤمن بدين من الأديان ، مع أن الجدل يتطلب قوة روحية توجه سيره ، وتخط له طريقه الصاعدة نحو التكمل والتقدم . ونلاحظ فى جدل المادية اتجاهاً نحو غاية محددة لايتسنى للقوة العمياء البلوغ إليها ، وتأتى الروح فى التطور المادى فى نهاية المرحلة بعد أن تكون الطبيعة سارت أشواطاً من التقدم والسعى نحو غاية محددة .

ونجد التناقض الأساسى فى فلسفة المذهب المادى فى الجفوة القائمة بين المادية والجدل كما يقول « بردياف » فينفصل الصراع عن المادة كما ينفصل الماء عن الزيت كما يقول « لوسكى » .

والماديون يخلطون بين الشرط والسبب خلطاً عجيباً ، فليس من شك أن الحياة العقلية والأدبية وحركة الفكر وتطور العلم وأن الذهنية والأفكار على اختلافها ، التى خلصت إلى الإنسان فى بيئة معينة ليست هى محصول الحالات المادية أو إنتاج المادة ، كما يزعم ماركس وتلاميذه إذ يخلطون بين الشرط والسبب ، ولو زعم زاعم أن كتاب ماركس الذى ألفه ليس من تأليفه بل من تأليف قلمه الذى خط حروفه ، لكان ذلك مستساغا على مذهبه .

إن المذهب المادى الذى يدعى تحرير الإنسان ، يرميه بالذل ، ويتطاول على كرامته ، ويحقر القيم الروحية التى تحوطه بهالة من المجد والكبرياء والعظمة ، ويفقده كل قيمة له ، وكل حق له فى الكرامة والحرية ، إذ يضحى آلة غاشمة تسير نحو أهدافها ، دون وعى أو إدراك .

إن نشأة العالم والحياة عند أتباع ماركس يرتكز على أصول مادية بحتة ، ويدخل ماركس تفسير الكون ضمن نطاق مستقبله التاريخى ، فلا إدراك للإنسان عنده مستقلا عن التاريخ ، ولا تقدير للقيم الفكرية والمادية ، ولا للتوازن بينها عنده إلا بالرجوع إلى التاريخ والإنسان عنده لا يتميز عن الحيوان إلا حين يشرع فى تأمين أسباب معاشه ، وكيانه يخضع فى رأيه لحالة إنتاجه المادى . وصلات الإنتاج تخلق فى رأيه كذلك الصلات بين الناس ، والتطور الاجتماعى عنده وليد الإنتاج ، وقوى الإنتاج هى سبب للثورات،ويقول ماركس إن المجتمع مر بالعصر البدائى ، ثم العصر الأمومى ، ثم العصر الأبوى أو القبلى ، ثم العصر الرأسمالى ، ثم العصر الشيوعى .

والحقيقة أن ماركس ينافى منطق العقل فى الجدل ، ويكره الحوادث

على تأدية غير معناها ، ويحارب القيم التى أثرت فى حياتنا المادية .

وليس أدل على خطأ المادية من قول إنجلز نفسه : « إن الحافز الأخير — حسب المفهوم الماركسى — هو الإنتاج وتجديد الانتاج فى الحياة الواقعية ، فلم نذهب أنا وماركس إلى أبعد من هذا الحد ، فإذا خطأ هذه النظرية إنسان ، ، مثبتاً أن العنصر الاقتصادى هو الحافز الأوحد ، فإنه يستنفد كل معنى لها ، ويغلفها بالإبهام ، ويقضى عليها بالابتعاد عن الصواب . إن الحالة الاقتصادية هى الأساس ، وإنما تؤثر العناصر المختلفة للهيكل العلوى — أى القوى الروحية كالضمير والإرادة — فى النضال التاريخى ، وقد ترجح كفتها فى كثير من الحالات وتوجه هذا النضال ، فثمة عمل متبادل بين كل هذه العناصر ، تبدو من خلاله ووسط طائفة لاحد لها من حوادث طارئة الحركة الاقتصادية ضرورية ،وإنا نلوم كتّاباً ناشئين يبالغون فى أهمية العامل الاقتصادى » .

إن البشر الذين كانوا يهملون العامل المادى إهمالا كبيراً ، كان من حق ماركس أن يلفتهم إلى أهمية العامل الاقتصادى ، لا أن يعطيه أسبقية لا يستحقها ، ولا أن يجعل منه العامل الأساسى لتقدم الناس وازدهار حضارتهم عبر الأجيال . . فهذا هو الخطأ والضلال المبين .

الاسلام والمادية

١

في مجتمعنا الحضاري المعاصر تتحكم القوى الآلية في كل شيء أكثر مما تتحكم القوى الروحية ، وفي صراع الإنسان مع الطاقات المادية الجبارة يقع صرعى ومتخلفون كثيرون ، وتنشأ مشكلات ونحن تؤلم كل ضمير حي ، وقلب يحس ويشعر . . ولكن الإسلام يقف دائماً بالمرصاد لكل مشكلة وكل أزمة اجتماعية ليقومها ويسدد خطا المجتمع الحديث نحو التقدم والرفاهية ؛ والعبادات والشعائر الإسلامية في مجموعها عبارة عن توجيه روحي للإنسان ليتحرر من الأغلال المادية ، وهي كذلك خير علاج لتقوية المشاعر الروحية وإيمان الإنسان بنفسه وشعوره بالقوة والحياة والعزة والكرامة ؛ والصوم خاصة من بين هذه العبادات، أعظم علاج لملل النفس وصدأ الروح وفقدان الثقة بالذات .

ومن هنا تنبري لنا مشكلات المجتمع الحديث وموقف الإسلام منها ، وفي مقدمة هذه المشكلات مشكلة الفقر ، وقد حارب الإسلام هذه المشكلة حرباً فعالة بما أقام من نظم رفيعة هي في جملتها أقرب النظم إلى العدالة والحرية والمساواة الاقتصادية ، فالزكاة والإحسان وتشريع نظام المزارعة والشركات ، وجعل بيت المال في خدمة الشعب ، وسوى ذلك مما يخفف من حدة الفقر ، وينهض بالمجتمع ، ويقوى به ، إلى ما يقرره الإسلام من وجوب تقوية مرافق الأمة العامة ، ومن تعاون الحكومة والشعب في محاربة الفقر والقضاء عليه ، . وقد حرم الإسلام الاستغلال

والاحتكار والربا ، وجعل المال فى خدمة المجتمع،فسبق بتلك الإنسانية المثلى كل المذاهب القديمة والحديثة على السواء ، وإذا كان الماديون يتشدقون بحرب الفقر ومحاولتهم القضاء عليه ، فإن الإسلام سبقهم إلى ذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، ووضع أسساً لهذه الحرب أقوم من مذهب الماديين وأسسهم فى حرب الفقر وفى الدعوة إلى حرية وكرامة الفقراء .

إن خطط الماديين فى حرب الفقر لا ترتكز على فهم واضح لنظم المجتمعات الإنسانية ، ولا إدراك عميق لطرق إزالة الفروق بين الناس .. ومع ذلك فإن الماديين فى تبنيهم للدعوة الإلحادية ، وفى حربهم السافرة للأديان ، لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً لتحقيق أهدافهم ،لأنهم أضاعوا الحافز الأكبر للأغنياء فى البذل ، وهو عنصر الدين .

ومن عجيب أن المادية وهى تناهض الأديان عامة ، تفرض نفسها على أتباعها كديانة ، لها كتب مقدسة من تأليف ماركس،وإنجلز ولينين، وستالين ، ولها هدف كبير هو فوز المادية وسيطرتها على العالم والشعوب وفى سبيل هذا الهدف تباح الوسائل ، وتحل الأسباب ، ويجب على كل مادى أن يعلن الحرب على كل الديانات ، لأن الماديين يعتبرون الأديان مولدة لطبقات المجتمع وضامنة لها البقاء ، فيجب أن تزول حتى تتلاشى الطبقات ، ويبدأ الملكوت المادى الجديد .

إن المادية الجدلية الملحدة هى فلسفة الماديين ودينهم الجديد ، ويؤمن كل أتباعها بها إيماناً أعمى ، تجد صداه فى قول ستالين : « إن الهبة التى هى أشد وأثمن ما فى إرث حزبنا هى تراثها الفكرى العقائدى وآفاقها الثورية»

ويقول ليوتوف ، وهو من أبرز فلاسفة المذهب المادى : « إن الحزب يحافظ على ثروة الأفكار البولشفية محافظته على حدقة عينه ، وإن الأساس الذى لا يتزعزع فى هذه الثروة هو المفهوم المادى الجدلى للعالم » .

٢

وقد غلت « الرأسمالية » فى تقديس المادة وجمع المال وعبادة الدرهم والدينار . وغلت « الشيوعية » فيما سمته العدالة الاجتماعية ، وتظاهرت بالعطف على الفقراء، فألغت الملكية الفردية وحرمت المجد من كده وتعبه، وحاربت السنن الكونية فى طبيعة الوجود . فمنذ بدء الخليقة يوجد فى الناس القوى والضعيف ، والكسوب والعاطل ، والعالم والجاهل ، والنابه والخامل ، والصحيح والمريض ، وبمقدار تفاوتهم فى الصفات يتفاوتون فى الغنى والفقر ، والرزق والكسب، وفى المعيشة ومتع الحياة، فمن حاول التسوية بينهم فقد حارب الطبيعة ورام المستحيل ، وخالف سنة الله فى خلقه .

يقول الله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليما » ، ويقول عز وجل : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » . ويقول سبحانه : « أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً . ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

لا شك بعد هذا فى أن الشيوعية ما هى إلا إباحية مطلقة ، ولادينية مغلقة ، بغلاف العدالة الاجتماعية . فليتدبر المسلمون ذلك ، وليعرفوه .

على أن الإسلام لم يغفل أمر العدالة الاجتماعية ، فنظام الصدقة العامة والمواساة المشروعة فى الإسلام نظام يكفل العدالة الاجتماعية بأقصى معانيها متى أحسن العمل به ، وقام كل مسلم بواجبه .. فها هى ذى مظاهر المواساة فى الإسلام واضحة جلية فى الزكوات المفروضة ، والكفارات الواجبة ، والصدقات المتنوعة .

قال الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقال عز شأنه : وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »، وقال جل وعلا: « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » . وقال سبحانه وتعالى : « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد ». وقال جل وعلا: « إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم»، وقال عز من قائل: « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . وقال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

وقال صلى الله عليه وسلم «مامن يوم يصبح الناس فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفاً » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من أطعم جائعاً أطعمه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه عز وجل من الرحيق المختوم ، ومن كسا مؤمناً عارياً كساه الله من خضر الجنة » .. وقال ابن عباس رضى الله عنهما :« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان » .

وهكذا نجد روح التكافل الاجتماعى سائدة فى القرآن الكريم ، ونجد الدعوة إليها عامة فى شتى آياته وسوره .

وليس هناك أعظم من شعور الفقير بأن وراءه من يرعاه ويحميه ويذود عنه الفقر ، ويدافع عنه الأذى ، ويسد عنه وعن أولاده غوائل الحاجة القريبة والبعيدة .

والتكافل الاجتماعى فى الإسلام يغنينا عن التشريعات المعقدة ، وفرض هيمنة الدولة على كل شىء ، مما يسود النظام المادى الشيوعى ، كجزء من مقوماته . .

والجشع الاقتصادى بكل مظاهره شىء لا يعرف فى الإسلام ، ونظام الربا الذى أصبح متغلغلا فى جميع فروع حياتنا نظام فاسد لا يليق بالإنسانية فى القرن العشرين ، وجدير بالأمم أن تفكر فيه من جديد ، وأن تخطو خطوة حاسمة لإنقاذ العالم من ويلاته .

والشركات التى تقوم على نظام الربا ، لابتزاز أموال الشعب ، شركات لا يقرها الإسلام الكريم .

إن روح الجماعة ، وتيسير سبل الحياة لكل إنسان ، لهما الينبوع الذى تخرج منه كل الأفكار الاقتصادية السليمة فى الإسلام .

وأساس النظرية الاقتصادية فى الإسلام : أعط المال لغيرك ليهيء لنفسه الفرص الطيبة فى الحياة ثم استرده منه .

وعلى هذا الأساس كانت شتى المعاملات الإسلامية الكريمة ، وما أجل ما يقول الله تعالى : وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

وهيكل تشريعات الإسلام يتجمع فى مبدأ واحد عادل ، هو الرغبة الملحة فى إتاحة الفرص جميعها أمام الفقراء ليعيشوا ويحيوا حياة طيبة ، وينعموا بالهدوء والاستقرار والأمن والدعة ، وليشب أولادهم شاعرين بأن النظام العام من حولهم يقيهم شر الحاجة ، ويدفع عنهم غوائل العوز ، ويأخذ بيدهم إلى المستقبل المجهول فى ثقة وأمن وهدوء .

إن مشكلة الفقر لا وجود لها فى الإسلام ، بما أقام من نظم اقتصادية سليمة ، ومن روح اشتراكية عادلة ، ومن حياة هادئة مستقرة لشتى الأفراد والجماعات .

ديننا الإسلام . . لا الإلحاد

إن للإسلام منهجه الخالد فى التشريع والإصلاح وقيادة الجماعات والأمم والإنسانية . وهو منهج يخالف كل ما تتناوله المادية من شئون وتنتظمه من مبادىء وتهدف إليه من غايات ، مما يرشد إلى أن الإسلام لا يوافقها فى أفكارها ووسائلها وغاياتها ، وأنه مثل أعلى فى العقيدة والنظام والتجديد .

« الإسلام واق من الإلحادية بما حوى من مبادىء خطيرة فى تشريعاته (١) .

ولو عرفت الدين الإسلامى وكيف كفل للمسلمين التساند الاجتماعى وأن واجباً محترماً على كل واحد منهم أن يأخذ بيد أخيه المسلم وأن يقف حاجزاً بينه وبين الحاجة .. لما توانيت لحظة فى الاذعان معنا فى أن الإسلام هو الصخرة التى ترتطم بها أمواج المادية ثم تنحسر عنها واهنة مخذولة (٢) .

وللإسلام رأيه فى مشكلات الاجتماع والحياة والسلام العالمى ، وفى مناهج المادية ومبادئها التى تسعى لنشرها بكل وسيلة ؟

---

(١) من حديث للشيخ سليم شيخ الأزهر السابق - عدد ٢٧ - ٥ - ١٩٥١ جريدة المصرى .

(٢) من حديث للشيخ الشناوى شيخ الجامع الأزهر الأسبق — مع صحفى أمريكى .

إن فلسفة المادية فلسفة مادية إلحادية ، تؤمن بالمـادة وحدها . وتنكر ما وراء المادة من روحيات ومثل وقيم أخلاقية عليا ، وتبنى كل شيء على نظرية دارون فى النشوء والارتقاء ، دون حاجة إلى الروح الشاملة ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله ، وترجع كل شيء حتى الدين والأخلاق وحوادث التاريخ وتطور المجتمعات إلى الظروف المادية للحياة ، وكان ماركس زعيم الشيوعية الروحى يقول : لا إله والحياة مادة ، ويدعو إلى القضاء على الدين وعلى الداعين إليه ، وكان إنجلز يقول : لا محل مطلقا لوجود خالق » .

وهذا الامعان فى إنكار الله ومحاربة الدين يناقض الإسلام وأصوله، ويحاربه الإسلام بكل ما يستطيع ، والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء هم فى رأيه مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا الى أمر الله ، لأن الإسلام يؤمن بالروحية ، ويجعلها أهم شيء فى حياة الإنسان ، والمادة تبع لها .. والحرية الدينية هى أهم حق من حقوق الإنسان ، والإسلام يدافع عن الحرية الدينية ، وينتصر لها ، ويأمر المؤمنين باحترام الأديان ، ولا يبيح لهم أن يتحكموا فى الحريات الدينية ، ويقرر أن لا إكراه فى الدين » ، و « لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه » ، ويدعو الى أن يبر المؤمنون أهل الأديان ويقسطوا اليهم .

ولكن المادية تتنكر لهذه الحرية ، وتشن حملة قاسية على الأديان ورجال الدين ، وتفصل الدولة والمدرسة عن الدين ، وقد ألغى الماديون القسم به ، وألفوا الجمعيات للدعاية الادينية ، ووضعوا برامج واسعة للقضاء على النزعة الدينية وفكرة الإله ، ولبث روح الإلحاد فى بلادهم ، وفى خلال الحرب الأخيرة بدأوا يخففون من قسوتهم فى معاملة الأديان

كسباً لعطف الديمقراطيات ، ولكن بعد أن فات الاوان ، وأصبح كل مادى داعية الى الإلحاد وحربا على الدين .

وتعادى المادية فكرة الجامعة الإسلامية لقوميات المسلمين فى بلادها وقد أرغمتهم على اتخاذ الحروف الروسية بدل العربية ، وعلى أن يقطعوا علاقتهم الروحية والثقافية بالعالم الإسلامي وبمصادر الثقافة الإسلامية .

واضطهدت المسلمين فى بلادها اضطهادا شديداً ، ويصرح مولوتوف بأنه « لن تنتشر المادية فى الشرق إلا إذا أبعد أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين » .

إن الحرية الدينية فى ظلال المادية لا وجود لها ، وهذا ما يأباه الإسلام ، وتنكره مبادئه.

وفكرة السلام الاجتماعى جزء من العقيدة الاسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة . والناس إخوة فى الله والإنسانية ، وعلى كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يؤمن بالإيثار وبالبذل وبالتكافل الاجتماعى .

أما المادية فتؤمن بالثورة وبصراع الطبقات ، لأن تحرير الطبقات العاملة فى رأيها لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة فقط . وهى بذلك تقضى على السلام والمحبة بين الناس ، وتبذر الحقد والكراهية فى المجتمع . . وذلك ما ينكره الاسلام ويعاديه .

والإسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والإخاء والتعارف ، والغى العصبيات وفوارق الألوان والأجناس .

أما المادية فتؤمن بالحرب ، وتناوىء السلام العالمى ، وتشجع الشيوعية الدولية . والكومنفورم على نشر القلاقل والاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية فى العالم كله بواسطة الأحزاب الشيوعية الموجهة.

والإسلام كان ظهوره وذيوعه فى العالم فى وقت قصير ، بسبب ما جاء به من مبادىء عالية،هى الحرية والإخاء والمساواة والعدالة ، وهى الإصلاح والمدنية والعرفان ، والانسانية المهذبة ،

بعكس المادية التى قامت بخداعها للطبقات المحرومة ، وبالثورة والتمرد وصراع الطبقات . وباضطهاد الحريات وتشريد خصومها فى الرأى ، وبالدعاية ، والمال ، وبتكوين الشيوعية الدولية ، وبغير ذلك من الوسائل التى لا يقرها الإسلام،دين الأمن والسلام والحرية والمدنية المهذبة والتعاون البشرى فى جميع مرافق الحياة .

والديمقراطية لا وجود لها فى المجتمعات المادية ، فالحريات مصادرة والمساواة معدومة حتى فى الاقتصاد وأجور العمال ، واستبداد الدولة الجائر بالفرد لاحد له ،والحكومة تسير على النظام الفردى الاستبدادى .

أما فى الإسلام فالأمر على النقيض : حرية وعدالة ومساواة وإخاء وحكومة شورية دستورية تقوم بمشيئة الشعب ، والحاكم فيها مسئول عن أعماله ، والحكم أساسه سيادة القانون وحكم الشعب للشعب ، وأن الحكومة وجدت لخدمة الفرد ورفاهيته .

وذلك كله هو دعامة الديمقراطية الحقة . . شتان بين جور المادية على الحريات وحماية الإسلام لها ، وبين تطبيق الإسلام لمبدأ المساواة التامة بين الناس فى كل شىء وحيف المادية على المساواة حتى فى الاقتصاد

وأجور العمال ـ مع أن مبادئها تنص على أنه لا فرق بين إنسان وإنسان. وبين الإخاء الإنسانى الذى جاء الإسلام به وعمل لأجله ، وتفريق المادية بين الناس ، وعملها الدائم للقضاء على فكرة الأخوة الإنسانية بما تذيعه من مبادىء الثورة وصراع الطبقات ، وما تعمل به من إنزال خصومها فى الرأى منزلة العبيد .

أفلا يدل ذلك على إن الإسلام أعرق قدما وأصح مذهبا فى الديمقراطية ؟

وحقوق الإنسان عند الماديين مستمدة من الجماعة وإرادته جزء من إرادتها، للانسان عند الماديين العمل ولكنه مقيد الحرية مسلوب الارادة ، يعمل كما تعمل الآلة الصماء ، ولكن الإسلام يرعى حق العمل ويطلق للعامل الحرية ، ويحافظ على حقوقه قبل صاحب المال .

وحق الراحة الأسبوعية الذى يقرره الماديون وكذلك حق المرأة فى التساوى مع الرجل ، جاء به من قبل الإسلام الكريم .

وحق الضمان الاجتماعى لافضل للماديين فيه.. فقد سبق عمر بن الخطاب فطبقه تطبيقاً تاماً عادلا بين المسلمين ، وتطبقه الاشتراكيات الحديثة بنجاح ، وحق التعليم الذى تؤكده الشيوعية قد سبق به الاسلام وقال رسوله: طلب العلم فريضة على كل مسلم. وكان التعليم فى الاسلام كله مجانياً، مع صرف الغذاء والمكافآت للطلاب وتوفير المسكن لهم .

إن الإسلام يحمى حق الإنسان فى الحياة والحرية والأمن والعدالة والإنصاف والمساواة، وحقه فى التعليم، وحقه فى الحكم الدستورى، وفى كل جانب عادل من جوانب الحياة .

والمظهر الاشتراكى فى المادية مغالى فيه مغالاة شديدة ، فهى

تنادى بإلغاء الملكية الفردية إلغاء تاماً ، وبجعل جميع مرافق الدولة فى يد الحكومة ، وتأميم جميع المرافق ، والقضاء على التجارة الخارجية والداخلية وقيام نظام السلع ، وتهيمن الحكومة على النظامين النقدى والمصرفى ، وتطبق الملكية المشتركة على المزارع . والعمل وحده له حق الحصول على دخل ومن لا يعمل لا يأكل . . . ولما فشل الماديون فى توزيع الأجور وفقاً للحاجة وزعوها وفقاً للإنتاج . . وهذه المغالاة أدت إلى قضاء المادية على الحريات وعلى روح الاشتراكية ؛ فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته .

والاشتراكيات الحديثة أنجح من المادية فى علاج الفقر والبطالة . والإسلام مثل أعلى فى الاشتراكية بما يدعو إليه من الإيثار والبذل والتكافل الاجتماعى ومقاومة الاستغلال والاحتكار والفقر وحماية الملكية وتشجيعها وحماية العامل وحقه وتقرير التأمين الاجتماعى وفرض الزكاة وتحريم الترف والإسراف والربا والحد من غلواء الرأسمالية وتشريع نظام الوقف والوصية والهبة والقرض والوديعة والإعارة والميراث والشركة والمزارعة والمساقاة والإجارة، إلى غير ذلك من مظاهر الاشتراكية العادلة.. والمادية تحارب الملكية الفردية التى حماها وحافظ عليها الإسلام ونظم انتقالها من الآباء إلى الابناء ؛ وجعل الملكية من أسباب تنظيم المجتمع وبعث الخير فيه ؛ ففرض عليها للدولة من الحقوق المالية ما رآه كفيلا بقيام بيت المال على مصالح المسلمين .

والمادية تخرج المرأة من البيت للعمل وكسب القوت ، وتدع حضانة الأطفال وتربيتهم لدور الحضانة ، وتجعل الابن مسئولا عن نفسه ومعاشه ، وله أن يحمل اسم أمه أو أبيه أو يستقل باسمه .

أما الإسلام فقد أحاط المرأة بشتى ضروب الرعاية ، فجعل نفقتها على أبيها أو زوجها وفرض لها المهر وجعل لها نصيبها فى الميراث واطلق لها حريتها المالية والاجتماعية والثقافية ، وجعلها ربة البيت ، وأباح لها أن تزاول شتى ألوان النشاط الاجتماعى الذى لا يتعارض مع مهمتها المقدسة ، وجعل الأبوين مسئولين عن الأبناء وتربيتهم ، وفرض على الرجل العدل مع الزوجة ، وقيد تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة.

وبعد فالإسلام « واق من الإلحاد بما حوى من مبادىء خطيرة فى تشريعاته » ، وهو « الصخرة التى ترتطم بها أمواج الشيوعية ثم تنحسر عنها واهية مخذولة » .

الإسلام رسالة وأصول حضارية

ينكر الملحدون رسالات السماء جملة ، ومن عجب أن ينكروا حقائق علمية لا يجافيها العلم الحديث ، فالله الذى خلق الإنسان قادر على أن يوحى إليه ما يشاء من تعاليم وعبادات ومثل وشعائر وشرائع ، ليرشده إلى طريق الخير وطريق الشر ، يقول الله تعالى : « ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » أى طريق الخير وطريق الشر ، وهذه الهداية إنما هى عن طريق الرسالات السماوية ، التى نزل بها جبريل عليه السلام على رسل الله وأنبيائه المصطفين الأخيار .

وكما أرسل الله إلى إبراهيم وموسى وعيسى أرسل إلى محمد صلوات الله عليه ، وبعثه رسولا إلى الناس كافة ، رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة ، وكانت بعثته فى عصر ضلت فيه الإنسانية قيم السماء ، ومثل الحياة ، عصر وثنى حرفت فيه الرسالات القديمة أو تنوسيت .

ذلك النور السماوى العظيم ، الذى كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة فيها خير الحياة والوجود ، لا بد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الأوهام والضلالات ، ويمحو ما ران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجمود وجهل ، وعصبية أثيمة كاذبة .

وذلك الناموس الذى كان ينزل على ابراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبل ، لا بد أن ينزل على رسول كريم من جديد ، ليدعو الناس إلى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب ، وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقاً لبشارة الأنبياء ببعث رسول هو خاتم المرسلين .

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى : ورقة بن نوفل الأسدى ، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، وعثمان بن الحويرث الأسدى ، وعبيد الله بن جحش ، يجتمعون فى الجزيرة العربية فى يوم عيد لهم ، فيقول بعضهم لبعض :

تعلمن والله ما قومكم على شىء ؛ لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شىء .... وذهبوا يطوفون فى البلاد يلتمسون حنيفية إبراهيم .

وكان زيد يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : والله لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته .

وفى مكة فى صباح يوم خالد ميمون ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، تسبقه إرهاصات ، وتحف بمولده الكريم معجزات وكرامات ، وتسير معه يوماً بعد يوم بشريات وأى بشريات ، ويحفظ الناس ما ذاع من ذكريات مولده ونشأته الكريمة العطرة . وبدأ النور الإلهى يظهر فى الأفق ، وأخذ الناموس السماوى يستعد لآخر رحلة له إلى الأرض .

وشب محمد ونما ، نبيلا شريفاً وسيداً سرياً . وفتى زكياً ، ولتى

قومه وقوم مرضعته النماء والخير على وجهه الأغر ، وقدمت به حليمة السعدية على أمه بعد فصاله ، ترجو أن تطيل لبث فتاها عندها ، متعللة بوباء مكة ، فقبلت آمنة بنت وهب ، ورجعت حليمة فرحة مستبشرة.

وبعد شهور كان محمد الغلام يلعب ومعه ابن حليمة خلف الرحال ، وبعد قليل جاء أخوه يشتد ، وهو يقول : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان فأضجعاه فشقا بطنه فهما ، يسوطانه ، فخرجت حليمة وزوجها نحوه ، فوجدته قائماً ممتقعاً وجهه فالتزمته هي وزوجها ، وقالت : مالك يا بني ! قال : جاءني رجلان ، عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا بطني فالتمس شيئاً لا أدري ما هو . فتخوفت عليه حليمة وقدمت به على أمه ، وقصت عليها القصص ، فقالت آمنة : إن لبني لشأناً أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حليمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام ، وحملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته ، وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقي راشدة .. وما أصدق ما يقول محمد بعد ذلك : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى .

ورأى بحيرى الراهب محمد الغلام ، في بصرى بأرض الشام مع عمه أبي طالب ، فرأى المعجزة الكبرى قريبة منه ، فأخذ يحدث محمداً ويسأله ثم قال لعمه : اذهب بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه فإن له لشأناً عظيما .

وسمع ورقة بن نوفل ما كانت تتحدث به خديجة بنت خويلد عن محمد وشأنه ، وكان عالماً بالديانات والكتب السماوية ، فقال لها : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه

كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه . وجعل ورقة يستبطىء مرور الأيام ويقول : حتى متى رسالة الله ؟ .

وبينما كان محمد يتعبد بغار حراء ، جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله يبلغه رسالة الله ، ويحمله أمانته .

ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى . وسمع الصوت الإلهي يناديه من كل مكان : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ، فقالت أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه القصص : فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبي هذه الأمة . ولقيه ورقة فى الكعبة وهو يطوف بها فقال : يا ابن أخى والذى نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى .

ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول ومن آمن معه جهاد الأبطال ، ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وليحمى حرية الدعوة إلى الدين من أذى المشركين وطغيانهم .

وقبيل الهجرة ، وبينما رسول الله صلوات الله عليه نائم فى بيت أم هانىء بنت عمه ، إذ جاء جبريل وملائكة معه . فأضجع محمداً وشق صدره ، وأسرى به إلى بيت المقدس فصلى بالأنبياء والرسل إماماً ، ثم أتى بثلاثة أوان . من لبن وخمر وماء فأخذ إناء اللبن فشرب منه ؛ فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك يا محمد . ثم عرج إلى السماء

فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ، حتى إذا كان بالأفق الأعلى ، وقف أمام ربه يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق ، واليقين النبوى العظيم .

وهاجر محمد إلى المدينة ، وأنقذ الدعوة من خطر المشركين وأذاهم وصدهم ، فذاعت فى كل مكان ؛ ودعا إليها الناس كافة وأرسل بنبئها الرسل إلى الأمراء والملوك والأقيال .

ثم اختاره الله إلى جواره الكريم ، بعد أن أنشأ أمة . وأسس ونشر شريعة الله ودينه الحق فى العالم كله .

وبدأ ميلاد الحضارة الإسلامية بعد ميلاد الإسلام بقليل ، وذلك حينما استقر الرسول وصحبه فى المدينة ؛ وأخذ الاستقرار الروحى والأدبى والفكرى والاجتماعى ينتشر فى جزيرة العرب .

ثم جاء الخلفاء وملوك المسلمين الأوائل ، فتعهدوا هذا الغرس حتى نما وازدهر وأثمر . وتعددت مراكز الحضارة الإسلامية فى العالم الإسلامى ، وهذا هو التاريخ شاهد صدق على مدى مابلغته دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسواها من مدنية ، ولقد تألقت أضواء الحضارة الإسلامية فى شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك ، وانتقلت من الشرق إلى الغرب عن طريق صقلية والأندلس،وباختلاط الأوربيين والشرقيين فى الحروب الصليبية وسواها .

وصحيح أن الحضارة الإسلامية اقتبست ونقلت عن حضارات الهند والصين وإيران والأشوريين والبابليين والفينيقيين والإغريق والرومان

وسواها ، ولكنها بجانب ذلك جددت وابتكرت ، فكان الشرق بحق أستاذاً وإماماً إبان العصور السالفة ، مما شهد به الفلاسفة والمفكرون فى الغرب ، وسجله التاريخ فى فخر وتقدير .

وإذا كان لكل حضارة مبادىء وأهداف ، تقوم عليها ولأجلها ، فإن الحضارة الإسلامية تقوم على مبادىء خالدة ، لم يصل إليها العقل البشرى من قبل ، ولم يستطع العالم فى القرن العشرين أن يجاريها أو يتخذ مما يماثلها دستوراً له فى الحياة . وهى مبادىء الإسلام ، وقبس من نور الله ؛ وتراث من حكمته . . فالإنسان خليفة استخلفه على الأرض،وعليه لذلك أن يتجه بروحه وقلبه إلى الله وحده لا شريك له ، يعبده ويطيعه، ويعمل بشرائعه ، ويوقن أنه معه فى كل مكان وحين ، يعلم السر وما هو أخفى ؛ « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

وينظر الإسلام إلى المجتمع — بجميع عناصره وطبقاته — على أنه أسرة واحدة متعاونة تعاوناً وثيقاً فى الحياة ؛ يعطف الغنى على الفقير ، ويحنو الكبير على الصغير ، ويدفع كل بالتى هى أحسن ، وهل أبلغ فى التعبير عن هذا التعاون المطلق والأخوة الكاملة من قول الله عز وجل: « إنما المؤمنون إخوة » ؟ .

والعالم كله بشعوبه وعناصره وأديانه مجتمع واحد ؛ يكفل له الإسلام الأمن والسلام ، فى ظلال التعاون والمحبة والإخاء والتبادل الفكرى والعقلى والروحى والمادى ، ويجب أن يعيش الناس أمة واحدة كما خلقهم الله .

هذا فوق ما كفله الإسلام من شتى عناصر التقدم والحضارة الأدبية

والروحية والمادية ، اللازمة لتقدم الجماعات . ورقى الأمم والشعوب ، بما قضى على الهمجية والوحشية فى عصور لم تعرف النور ولا الحضارة من قبل .

والأهداف الأولى لهذه المبادىء كلها فى نظر الإسلام ، هى نشر أفكار الحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء والشورى والتعاون والخير والمحبة والرحمة والسلام : ليعيش الناس فى ظلال وحدة مجتمعة فى الأفكار والأهداف والمبادىء والغايات ، ظلال عالم موحد تسوده الطمأنينة والأمن والسلم ، وحضارة مشتركة غايتها الإخاء بين الروح والمادة والعقل والجسم والواجب والحق والإيثار والأثرة .

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتعذر تقديرها ، وما يعلمه المسلمون من سلامة عقائدهم ، وأصالة أصولهم ، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر ، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود ، لا تدعهم يشكون فى أن دينهم سن للناس كافة سنة لا محيص لهم عن القيام عليها . فإن ظهر أن كثيراً منهم لا يزالون يتحامون الجرى عليها ، فسيضطرهم الترقى العلمى والفلسفى إلى الاعتراف بحقيقتها ، وإذ ذاك يلتقى الناس كافة فى حظيرة واحدة هى حظيرة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطرى والمعارف الممحصة . وأمر الناحية الدينية معروف . وأما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمى العالمى ، وتولوه بالزيادة والتمحيص ، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية ، فأوجدوا بذلك مدنية ليس فى العالم اليوم من يدعى أنه ليس مديناً للإسلام من هذه الناحية . ويؤيد هذه الحقيقة كبار المؤرخين والعلماء الأوربيين ، وهذا هو كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون

الذى ترجمه إلى العربية محمد عادل زعيتر . يدل بحق على أثر العرب فى الحضارة ، قال جوستاف لوبون تحت عنوان « تمدين العرب لأوربا — تأثير العرب فى الشرق والغرب » : لا ترى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التى كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزمن .

« ولم يتجل تأثير العرب فى الشرق فى الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ فى ثقافته العلمية أيضاً . وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسما كبيراً من معارفهم العلمية التى عدها الأورو بيون على غير حق من أصل هندى أو صينى .

« ويظهر أن مااقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذه الهنود عنهم ، وقد رأينا فى فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية ، وأن الفلكى الصينى الشهير كوشوكينغ تناول فى سنة (١٢٨٠) م ، رسالة ابن يونس فى الفلك وأذاعها فى بلاد الصين ، و ثبت الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم كتأثيرهم فى الشرق ، وأن أوربا مدينة للعرب بحضارتها . « إنه لايمكن إدراك أهمية شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية فى أوج نضارتها ، رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم فى أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرقوق ماهو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

« مضت مدة طويلة قبل شعور أوروبا بهمجيتها ، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم ، ولوا وجوههم شطر العرب.

« ودخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، فى سنة (١١٣٠) م ، أنشىء فى طليطلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب. ولم يتوان العرب فى أمر تلك الترجمة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد . ولم يقتصر فى تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد الخ وحدها إلى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية، ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطليموس ،وقد روى الدكتور (لوكلير) فى كتابه الذى سماه (تاريخ الطب العربى) أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب ، ولم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان فى الحقيقة إلا من ترجماتها العربية ، وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها ، ككتاب أبولونيوس فى المخروطات ، وكتاب جالينوس فى الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو فى الحجارة الخ . وإذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة،فالعرب هم تلك الأمة ، لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة ، قال

المسيو (ليبرى) : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون .

« إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا فى القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان،حتى فى القسطنطينية ، ولم يكن فى العالم فى ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها ، فإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم،ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التى لا تزال موضوع جدال : جربرت ، الذى صار باباً سنة ٩٩٩ ملقباً بسلفستر الثانى ، ولما أراد هذا البابا أن ينشر فى أوروبا ماتعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان .

وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوروبا نحو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر فلقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبلييه فى أواخر القرن الماضى .

« وإذا كان تأثير العرب عظيما فى أنحاء أوروبا التى لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم ، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك فى البلاد التى خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا . . ولن يرى الباحث مثالا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم فى أمة أخرى ، ولم يشتمل التاريخ على ماهو أبرز من هذا المثال » .

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوروبيون ، والحقيقة أكبر مما قالوه وسجلوه .

اشتراكية عادلة

يقول الرسول الأكرم : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له .

ويقول : ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم ، ويقول : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع وبخامس .

وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، أى بين الفقراء والأغنياء بين المشردين عن أوطانهم وأموالهم والمقيمين فى وطنهم ومالهم وأهليهم.

وكان يقول : يا معشر المهاجرين والأنصار : إن بين إخوانكم من ليس له مال فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة .

وعن جابر بن عبد الله قال : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول: من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه .

وقد شرع الإسلام نظام الوقف لتكون الأرض أو العقار ملكا للمجموع ، وتصرف فى مصارف الخير والإحسان . . وفوق ذلك فقد حرم الاحتكار ، احتكار الأقوات العامة ، وما يشبهها من موارد الثروات العامة .

كما حرم الربا ، حرمه لأنه مظهر للأثرة والأنانية وحب الذات، فالفقير الذى يقترض منك جنيها لا يصح أن تأخذه منه جنيها وربعا أو

ثلثا أو نصفا وإلا كانت نفسك جشعة لا تعرف معنى الدين والإيثار والإنسانية .

وأوجب الزكاة ، وحارب أبو بكر العرب حين منعوها وجعلهم مرتدين .

وفرض الصدقات والإحسان ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن الطمع فيما فى أيدى الناس .

وطالب باعطاء الناس حقوقهم ، وإعطاء الأجير أجره ، وبإيداع الأغنياء أموالهم فى أيدى الفقراء ليعملوا بها على أى لون من ألوان العمل والتصرف ، شركة أو مضاربة أو مزارعة أو مساقاة . وشرع نظام القرض والوديعة والإعارة والوصية والهبة ، وفرض فرائض الميراث .

أو ليس كل ذلك كله خطوة حاسمة لتقريب ما بين الطبقات ولمحاربة الفقر وعلاجه علاجا حاسماً . ولخلق جو من المودة والتفاهم بين الفقراء والأغنياء ، ولنشر روح من السماحة والإخاء والتعاون ؟ هذا وغيره من مبادىء الإسلام الخالدة هو الاشتراكية بأجل معانيها وأروع أهدافها وأسمى غاياتها وألوانها .

اشتراكية تحارب الرأسمالية الجشعة المتنمرة ، وتحارب الشيوعية المتلصصة المتذئبة ، وتحارب الماركسية المتطرفة الحمقاء ، وتحارب الفوضى فى المجتمع ، وتقتل بذور الشقاق والخلاف والعداوة بين الناس والطبقات.

اشتراكية هى العدل والتعاطف والمحبة ، وهى الإيثار والتضحية ، وهى تقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وهى الألم لشقاء الناس والبذل لما فى اليد ، ومساعدة كل ذى محتاج .

اشتراكية لا تدع لذى ألم ألما ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولا لذى

كربة كربة . . من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ».

اشتراكية مبدؤها : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » و « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . فأين هذا من قول برنارد شو فيلسوف العصر : « لا تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، ووصيتها : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ، فأين من هذا قول برنارد شو : لا تحب جارك كما تحب نفسك ، فإنك إن كنت سعيداً بنفسك فإن ذلك قحة ، وإن كنت على العكس فإن ذلك ضرر . اشتراكية ما أجل معناها . وأدق مغزاها ، وأعظم أهدافها وغاياتها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، وحجز عمر على قريش أن يهاجروا إلى الأراضي المفتوحة حرصاً على امتلاكها ، حتى لا يضيقوا على عباد الله فقال : ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حي فلا ، والايثار وحض القرآن الكريم عليه معروف : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وقد جعل الله تعالى الفيء لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لئلا يستأثر به الأغنياء وحدهم فقال : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

كل هذا من مظاهر اشتراكية الإسلام العادلة ، وشريعته السمحة البرة الرحيمة بالناس والفقراء والمجتمع .

إنسانية الاسلام

الإسلام يحث على العمل ، ويحارب البطالة ، ويفرض ألواناً من المعاملات التى يشترك فيها الأغنياء والفقراء فى ميدان العمل ، ويتاح فيها للفقراء فرصة استغلال مواهبهم استغلالا واسعاً ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة ، وكالشركة ، وكالعمل ، والإجارة ، والوكالة ، وسواها .

فإذا عجز الإنسان عن العمل فهناك ألوان من المساعدات الاجتماعية التى تؤمنه على حياته ، كالزكاة والصدقة والإحسان ، وكالملاجىء العامة التى تفتح الدولة أبوابها للعجزة والمساكين واليتامى والأرامل ، وكأموال الأوقاف العامة للمسلمين التى تصرف فى وجوه الخير والبر والإحسان ورعاية شئون الفقراء .

وقرر القرآن الكريم حق الفقراء فى أموال الأغنياء : « وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » . والمال فى يد الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم عليه ، وأوجب رده على عياله من الفقراء .

ويحث الرسول الأعظم على وجوه الخير والبر والإحسان والتضامن الاجتماعى : « من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » ، « الله فى عون ما دام العبد فى عون أخيه » ، « من مشى فى حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف سنين » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « من لا يرحم لا يرحم » ، « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . كما أوصى بالجار أشد وصية وآكدها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، المهاجرين الفقراء الذين جردوا من أموالهم وأهليهم وأولادهم . وكان الإيثار أغلب شيء على المسلمين ، أرأيت عبادة بن الصامت وقد أهديت له هدية ، ومعه فى الدار أثنا عشر من أهل بيته ، فقال : اذهبوا بهذه الهدية إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، فذهب بها الوليد بن عبادة ، فكان كلما جاء أهل بيت قالوا له : اذهب بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها . حتى رجعت الهدية إلى عبادة ؟

وقرب الإسلام مع ذلك بين الفقراء والأغنياء ، بالزكاة والإرث والوصية ونظام الوقف وسوى ذلك من التشريعات التى تتجه إلى إنقاذ الفقير وتمكينه من الحياة ورفع مستواه فى المجتمع .

وهناك بعد ذلك كله لعلاج الفقر ، والقضاء على الحاجة ، بيت مال المسلمين الذى يلزم بالقيام على شئون الناس ، وخاصة الفقراء لسد حاجاتهم . وكان للفقراء والمساكين والأرامل واليتامى وأبناء السبيل نصيب معلوم يجرى عليهم من بيت المال . كما كان لهم نصيب فى الغنائم ونصيب فى الزكاة .

وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، إلا عبداً مملوكا . ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ؛ وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم

كل ما يرد إليه من مال على المسلمين بالسوية ، وكذلك عمر . ويروى أن علياً كان يقسم ما فى بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً .

وعمر بن الخطاب يقرر فى بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما دام بدار الإسلام ، ولقد رأى ذات يوم يهودياً يستجدى ، وعلم أنه ألجىء إلى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه . وفى سفره إلى دمشق أمر بمثل هذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجذام فلم يجدوا إلى العمل سبيلا . وكان من هذه السياسة العادلة التى شملت المسلمين واليهود والمسيحيين أنه لم يكن فى عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج ، وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان عمر يفرض لهم أيضاً من بيت المال ما يكفيهم كما يفرض لولى كل طفل رزقاً يعينه على تنشئته وتربيته[1] .

فهل بعد ذلك نظام أكمل ، للضمان الاجتماعى ، والتأمين الاجتماعى ، من هذا النظام ؟ إن الغرب فى القرن العشرين لم يأت بجديد ، إن أصول حضارة الغرب مأخوذة من مبادىء الإسلام وشريعته الخالدة ، وأعمال خلفائه الأولين ، ومآثرهم فى العدل وسياسة الملك ومعاملة الرعية .

---

(١) مجلة الأزهر عدد شعبان سنة ١٣٧٠ هـ — الدكتور محمد يوسف موسى : ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر .

مراجع

الرد على الماديين — تفسير القرآن الحكيم — الاسلام ومبادئه الخالدة — بين الشيوعية والإسلام — الإسلام رسالة الاصلاح والحرية — فى ظلال الإسلام — الإسلام دين الإنسانية الخالد — بين ماضى الإسلام وحاضره ، وهى كلها من تأليف المؤلف

الإسلام والشيوعية : تأليف	عبد المنعم النمر
« « «	العقاد وأحمد عبد الغفور عطار
الإسلام بين أمسه وغده : تأليف	محمود قاسم
الإسلام فى القرن العشرين : تأليف	عباس العقاد
نظام الإسلام : تأليف	تقى الدين النبهانى
أخناتون : تأليف	عبد المنعم أبو بكر
وجه الشيوعية : تأليف	م . حكيم
الدين والعلم :	للمشير أحمد عزت
الله .	لعباس العقاد
الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية .	للدكتور حب الله
الدين :	للدكتور محمد عبد الله دراز
نشأة الدين .	لعلى النشار
علم الاجتماع الدينى :	لشلخت
إيديولوجية عربية جديدة :	لمصطفى عبد اللطيف السحرتى
ديانة المصريين القدماء : تأليف	ايستيندرف
الرد على الماركسيين : تأليف	لمعى المطيعى

محتويات الكتاب

صفحة

مطبعة دار التأليف
٨ شارع يعقوب بالمالية بمصر تليفون : ٢١٨٢٥